مطلع النور

أو طوالع البعثة المحمدية

تأليف

عباس محمود العقاد

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

مقدمة المقدمات

مطلع النور عنوان هذه الصفحات

ومدار البحث فيها على البعثة النبوية ـ بعثة محمد عليه السلام ـ وما تقدمها من أحوال العالم ، وأحوال جزيرة العرب ، وأحوال الأسرة الهاشمية ، وأحوال أبويه الشريفين

ويدور البحث فيها على نوعين من المقدمات :

مقدمات تمهد لنتائجها وتفضى اليها

ومقدمات تأتى النتائج بعدها كأنها رد فعل لها ، وعلاج لأسبابها وعواقبها

مقدمات من قبيل الداء يأتى بعده الموت ، فهو نتيجته وعقباه على الشرعة المعهودة فى طبائع الاشياء

ومقدمات من قبيل الداء يأتى بعده الدواء ، فليس هو بنتيجة له الا على معنى واحد ، وهو لحاق الدواء بالداء ، وظهور الشفاء بعد الحاجة اليه

مقدمات تتحقق بها قوانين الطبيعة

ومقدمات تتحقق بها عناية الله

ولا سيما حين تأتى الحاجة الى الشفاء من غير المريض ،

بل تأتى على الرغم منه وعلى خلاف ما يرجوه ويبتغيه

كيف نشأ التوحيد بعد التباس الوحدانية بالشرك واختلاط الأديان بين الآلهة والأوثان ؟

كيف نشأت ديانة الأنسانية بعد ديانات العصبية والاثرة القومية ؟

كيف نشأت نبوة الهداية بعد نبوة الوقاية والقيادة ؟

كيف أصبحت المعجزة تابعة للايمان بعد أن كان الايمان تابعا للمعجزة ؟

كيف ظهر الاسلام بعد عبادات لا تمهد له ولا يبقى عليها مقدمات لم تكن واحدة منها ممهدة لنتائجها ، وان مهدت لها خطوة فى الطريق فقد تنكص بها بعد ذلك خطوات وخطوات

وهذه هى المقدمات التى لا تأتى بعدها النتائج الصالحة الا بعناية من الله واتجاه بقوانين الكون وعوامله الى حيث يشاء

فليست الجاهلية مقدمة للاسلام

وليس الفساد فى العالم سببا للصلاح

وليست قريش ولا جزيرة العرب ولا دولة القياصرة ولا ابهة الأكاسرة هى التى بعثت محمدا لينكر العصبية على قريش ، ويعلم العرب تسقيه التراث الموروث من الآباء والأجداد ، ويثل العروش التى قام عليها الطغاة وتأله عليها الجبابرة من دون الله

هؤلاء جميعا كانوا ضحية البعثة المحمدية

وهؤلاء جميعا كانوا مريضها الذى شفى على يديها بغير شعور منه بالمرض وبغير سعى منه الى الشفاء

وتلك هى المقدمات ونتائجها كما تتجه بها عناية الله

رسول يوحى اليه فيصنع الاعاجيب

ذلك ما يقوله المؤمنون بعناية الله

فاذا استطاع المنكرون أن يقولوا غير ذلك فليقولوه وليفسروه . فلا تفسير له عندهم الا أن الفساد يصلح الفساد ، وأن الداء يشفى الداء ، وأن الأسباب تمضى فى طريقها فتختلف بها الطريق وتذهب الى حيث لا يفضى الذهاب

جاء محمد بدين الانسانية فى أمة العصبية

جاء ينكر كل اله غير الواحد الأحد فى عالم يؤمن بكل اله غير الواحد الأحد ، أو يؤمن به كأنه صنم من الأصنام يتعدد فى كل بيعة وكل مقام

أمحمد وحده يقدر على ذلك ؟

أمحمد يقدر عليه بعناية من الله ؟

أدنى القولين الى عقل العاقل أدناهما الى الايمان ، وأنآهما عن الصواب أنآهما عن الله

ولولا تدبير من الله لما ادخرت جزيرة العرب لهذه الرسالة لتخرج بالتاريخ الانسانى كله الى عالم جديد

وسنرى فيما يلى من هذه الصفحات كيف تتناقض

النتائج والمقدمات فلا تستقيم الا بمقدمة واحدة ، وهى رسالة النبوة وعناية الله

وسنبدأ بالمقدمات من طوالع الغيب فى تأويل المتأولين الى وقائع الحس والعيان فى أحوال العالم ، وأحوال الجزيرة، وأحوال الأسرة ، وأحوال البيت الذى طلع منه نور النبوة ، وبزغ منه فجر التاريخ الجديد فى كل ما حوله ، وتحققت به عناية الله

ونرجو فى نهاية المطاف أن نبلغ بها نتيجة النتائج كما تتفق عليها نظرة الفكر وبديهة الايمان

وعلى بركة الله

الطوالع والنبوءات

على بركة الله نمضى فى سرد المقدمات التي سبقت البعثة المحمدية بنوعيها :

مقدمات ترتبط بما تلاها من الحوادث ارتباط الأسباب بالمسببات

ومقدمات لا ترتبط بما تلاها هذا الارتباط ، بل لعلها تناقضها وتؤدى الى خلافها ، وانما ترتبط بها ارتباط الداء بدوائه والعلة بما يزيلها ، فليست النتائج هنا وليدة المقدمات ، بل هى العلاج الذى يزيلها والآية الالهية التى تحول الأسباب الطبيعية الى طريق الحكمة الأبدية التى تنكشف اوائلها من خواتيمها ، خلافا للعرف الشائع من دلالة الأوائل على الخواتيم

ورائدنا فى متابعة هذه المقدمات بنوعيها أن ننظر فى الآيات الكونية والمعانى التاريخية ، لأنها ولا شك عنوان ارادة الله المتصرف فى الكون كله ، ولأنها — على هذا — مفتوحة الصفحات لكل ناظر ومتأمل يعمل بفريضة الاسلام الكبرى وهى التفكير فى ملك الله والنظر بالعقل فى حقائق السماوات والأرضين

رائدنا فى البحث عن مقدمات الدعوة النبوية ان ارادة الله ظاهرة فى ملكه وآيات خلقه ، وان الناس مطالبون بالنظر فى هذه الارادة قبل النظر فى المعجزات والخوارق

التى لا تأتى فى كل حين ولا تخص المؤمنين دون سائر المصدقين بالحس والعيان

وسؤالنا عن كل معجزة لا يدور على امكانها أو استحالتها ، فليست المعجزات بالقياس الى قدرة الله خالق الكون الا كالمألوفات التى تجرى بها العادات فى كل يوم ، فاذا كانت الموجودات مخلوقة بخصائصها فالذى خلقها وخلق خصائصها يملك تغييرها وتبديلها ويأتى بالمعجزات كما يأتى بالمنظور المطرد من النواميس والعادات ، وعقيدتنا فى ذلك عقيدة الامام الغزالى رضى الله عنه حيث قال غير مرة ان الحوادث تجرى عند حصول الأسباب ولا تجرى بحصول تلك الأسباب ، فليست خصائص المادة من فعلها ولا ارادتها ولكن المادة وخصائصها جميعا من فعل الحكمة الالهية التى تسخر كل شىء بمقدار

فنحن لا نسأل : هل المعجزة ممكنة أو غير ممكنة ، فان العقل الذي يقول أن المادة لا توجد الا هكذا اضيق من العقول التى تصدق كل شىء بغير بحث ولا برهان

ولكننا نسأل : هل المعجزة لازمة أو غير لازمة ؟ وهل كان لها اثر مشهود فى الاقناع بالدعوة كما ينبغى لكل معجزة ، او كانت فى تاريخ الدعوة عملا بغير اثر ولغير ضرورة ؟

ذلك أن الله جل وعلا يضع قوانين الطبيعة لحكمة ويخرقها لحكمة ، وتعالى الله عن العبث فى غير معنى . فلا يكون خرق القوانين وخلق المعجزات لغير قصد يعلمه شهود المعجزة التى تخالف مألوفهم ومجرى العادات أمامهم كل يوم

وقد اشرنا الى ذلك فى كتابنا عن عبقرية محمد حين قلنا ان « علامات الرسالة الصادقة هى عقيدة تحتاج اليها الأمة، وهى أسباب تتمهد لظهورها ، وهى رجل يضطلع بأمانتها فى أوانها ، فاذا تجمعت هذه العلامات فماذا يلجئنا الى علامة غيرها ؟ واذا تعذر عليها ان تتجمع فأى علامة غيرها تنوب عنها أو تعوض ما نقص منها ؟ وقد خلق محمد بن عبدالله ليكون رسولا مبشرا بدين ، والا فلأى شىء خلق ؟ ولأى عمل من أعمال الحياة ترشحه كل هاتيك المقدمات والتوفيقات ، وكل هاتيك المناقب والصفات ؟ لو اشتغل بالتجارة طول حياته كما اشتغل بها فترة من الزمن لكان تاجرا أمينا ناجحا موثوقا به فى سوق التجار والشراة ، ولكن التجارة كانت تشغل بعض صفاته ثم تظل صفاته العليا معطلة لا حاجة اليها فى هذا العمل مهما يتسع له المجال ، ولو اشتغل زعيما بين قومه لصلح للزعامة ولكن الزعامة لا تستوفى كل ما فيه من قدرة واستعداد . فالذى أعده له زمانه واعدته له فطرته هو الرسالة العالمية دون سواها ، وما من أحد قد اعد فى هذه الدنيا لرسالة دينية ان لم يكن محمد قد اعد لها اكمل اعداد

وقلنا عن بشائر الرسالة المحمدية ان المؤرخين «يجهدون أقلامهم غاية الجهد فى استقصاء بشائر الرسالة المحمدية : يسردون ما اكده الرواة منها وما لم يؤكدوه وما قبله الثقات منها وما لم يقبلوه ، وما أيدته الحوادث أو ناقضته، وما وافقته العلوم الحديثة أو عارضته ، ويتفرقون فى الرأى والهوى بين تفسير الايمان وتفسير العيان وتفسير المعرفة وتفسير الجهالة ، فهل يستطيعون ان يختلفوا

لحظة واحدة فى آثار تلك البشائر التى سبقت الميلاد أو صاحبت الميلاد حين ظهرت الدعوة واستفاض أمر الاسلام ؟

« لا موضع هنا لاختلاف

« فما من بشارة قط من تلك البشائر كان لها اثر فى اقناع أحد بالرسالة يوم صدع النبى بالرسالة ، أو كان ثبوت الاسلام متوقفا عليها ، لأن الذين شهدوا العلامة المزعومة يوم الميلاد لم يعرفوا يومئذ مغزاها ومؤداها ولا عرفوا أنها علامة على شىء أو على رسالة ستأتى بعد أربعين سنة ، ولأن الذين سمعوا بالدعوة واصاخوا الى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة لم يشهدوا بشارة واحدة منها ولم يحتاجوا الى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا اليه . وقد ولد مع النبى عليه السلام أطفال كثيرون فى مشارق الارض ومغاربها . فاذا جاز للمصدق ان ينسبها الى مولده جاز للمكابر ان ينسبها الى مولد غيره ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصدقين والمكابرين الا بعد عشرات السنين ، يوم تأتى الدعوة بالآيات والبراهين غنية عن شهادة الشاهدين وانكار المنكرين . أما العلامة التى لا التباس فيها ولا سبيل الى انكارها فهى علامة الكون أو علامة التاريخ . قالت حوادث الكون لقد كانت الدنيا فى حاجة الى رسالة ، وقالت حقائق التاريخ لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة ، ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ .. »

على هذا المحك البسيط نعرض اخبار الخوارق والمألوفات

فى تاريخ الدعوات النبوية ، وينبغى ان نقرر فى هذا المقام ـ لأنه مقامه الذى يذكر فيه ـ أن المؤرخ المسلم الذى يكتفى بالآيات الكونية انما يختار هذا الطريق لأنه طريق واضح المعالم أمامه وأمام الناظرين الذين يعملون بهداية الاسلام فى تدبر الآيات والبحث عن حقائق الموجودات ، ولكنه لو شاء لوجد لديه ذخيرة من الطوالع والنبوءات التى يعتمد اتباع الاديان المختلفة على امثالها ، وقد يعز عليهم أن يجدو امثالها فى المصادر التى يؤمنون بها ولا يشكون ، فلا يعتمد المؤرخ المسلم على الآيات الكونية لقلة الطوالع والنبوءات التى يثوب اليها ـ لو شاء ـ كما يثوب غيره ، وانما يعتمدها توثيقا للبينة وايثارا لأفضل الحسنيين فى مقام المقابلة بين المتشابهات

ومن الحسن ان نأتى على امثلة من الطوالع والنبوءات التى وجد فيها بعض المؤرخين المسلمين شواهد على ظهور النبى عليه السلام مكتوبة قبل اوان ظهوره بعشرات القرون ونلاحظ ان هؤلاء المؤرخين ، او اكثرهم ، من فضلاء الهند وفارس والامم الشرقية التى تتكلم غير العربية ، وسر ذلك انهم ورثوا فى بلادهم طوالع الديانات السابقة ولم يشاءوا ان تكون هذه الطوالع مزايا خاصة تنفرد بها تلك الديانات ويعجزون هم عن الاتيان بنظائرها التى تقابلها فى كفة الديانة الاسلامية ، فهم يتوخون الزام الحجة بالدليل المماثل ولا يعيبهم فعلا ان يجدوا ذلك الدليل مساويا او راجحا فى الدلالة على ادلة المتقدمين من ابناء الملل الغابرين

ونحن نورد هنا بعض الامثلة التى يستدعيها المقام ولا

يجوز اهمالها فى تمهيد يحيط بجميع الشواهد والمقدمات ولو على سبيل الاجمال

من هذه الكتب كتاب باللغة الانجليزية الفه « مولانا عبد الحق فديارتى » وسماه« محمد فى الاسفار الدينية العالمية» واستفاد فى مقارناته ومناقضاته بمعرفته للفارسية والهندية والعبرية والعربية وبعض اللغات الاوربية ، ولم يقنع فيه بكتب التوراة والانجيـــل بل عمم البحث فى كتب فارس والهند وبابل القديمة ، وكانت له فى بعض اقواله توفيقات تضارع اقوى ما ورد من نظائرها فى شواهد المتدينين كافة ، ولا نذكر اننا اطلعنا على شـــاهد اقوى منها فى روايات الاقدمين او المحدثين من اتباع الديانات الاولى او الديانات الكتابية

يقول الاستاذ عبد الحق ان اسم الرسول العربى «احمد» مكتوب بلفظه العربى فى السامافيدا (Sama Vida) من كتب البراهمـــة ، وقـــد ورد فى الفقرة الســادســـة والفقرة الثامنة من الجزء الثانى ونصها ان « احمد تلقى الشريعة من ربه وهى مملوءة بالحكمة وقد قبست منه النور كما يقبس من الشمس »

ولا يخفى المؤرخ وجـــوه الاعتراض التى قد تأتى من جانب المفسرين البرهميين ، بل ينقل عن احدهم (سينا اشاريا) Syna Acharya انه وقف عنـــد كلمة « احمد » فالتمس لها معنى هنديا وركب منها ثلاثة مقاطع وهى « اهم » و « آت » و « هى » .. وحاول ان يجعلها تفيد « اننى وحدى تلقيت الحكمة من ابى » . قال الاستاذ عبد الحق ما

فحواه ان العبارة منسوبة الى البرهمى « فاتزا كانفا » Kanva من اسرة كانفا ، ولا يصدق عليه القـــول بانه هو وحده تلقى الحكمة من ابيه

ويزيد الاستاذ عبد الحق على ذلك ان وصف الكعبة المعظمة ثابت فى كتاب الأثارفا فيدا Atharva Vida حيث يسميها الكتاب بيت الملائكة ويذكر من أوصافه أنه ذو جوانب ثمانية وذو أبواب تسعة

والمؤلف يفسر الابواب التســـعة بالابواب المؤدية الى الكعبة وهى باب ابراهيم وباب الوداع وباب الصفا وباب على وباب عباس وباب النبى وباب السلام وباب الزيارة وباب حرم ، ويسرد اسماء الجوانب الثمانية حيث ملتقى الجبال وهى فى قوله جبل خليج وجبل قيقعان وجبل هندى وجبل لعلع وجبل كدا وجبل ابو حديدة وجبل ابى قبيس وجبل عمر .

ويضرب المؤلف صفحا عن تفسير البرهميين لمعنى البيت هنا بانه جسم الانسان ومنافذه ولا يذكره لانه على ما يظهر يخالف وصف القداسة الروحية فى البرهمية ، ولا يأتى بتفسير للجوانب الثمانية عند تفسيره للابواب بذلك المعنى

وفى مواضع كثيرة من الكتب البرهمية يرى المؤلف ان النبى محمدا مذكور بوصفه الذى يعنى الحمد الـــكثير والسمعة البعيدة ، ومن اسمائه الوصفيـــة اسم سشرافا Sushrava الذى ورد فى كتاب الأثارفا فيدا Atharva Vida حيث يشار الى حرب اهل مكة وهزيمة«العشرين والستين الفا مع تسعة وتسعين » وهم على تقدير المؤلف عدة اهل

مكة وزعماء القبائل الكبار ووكلائهم الصغار كما كانوا يوم قاتلوا النبى صلوات الله عليه

وللمؤلف صبر طويل على توفيق هذه العلامات واشباهها يستخرج منها الطالع بعد الطالع والنبوءة الى جانب النبوءة مما يغنى المثل عليه عن استقصاء جميع موافقاته وعلاماته

وكذلك صنع بكتب زراذشت التى اشتهرت باسم الكتب المجوسية فاستخرج من كتاب زندافستا Zend Avesta نبوءة عن رسول يوصف بأنه رحمة للعالمين «سوشيانت» Soeshyant ويتصدى له عدو يسمى بالفارسية القديمة ابا لهب Angra Mainyu ، ويدعو الى اله واحـــد لم يكن له كفؤا احد (هيج جيز باونمار) وليس له اول ولا آخر ولا ضريع ولا قريع ولا صاحب ولا اب ولا ام ولا صاحبة ولا ولد ولا ابن ولا مسكن ولا جسد ولا شكل ولا لون ولا رائحة

« جز آخاز وانجام انباز ودشمن ومانند ويار وبدر ومادروزن وفرزند وحاى سوى وتن آسا وتنانى ورنك وبوى است »

وهذه هى جملة الصفات التى يوصف بها الله سبحانه فى الاسلام : احد صمد ليس كمثله شيء لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا احد ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا

ويشفع ذلك بمقتبسات كثيرة من كتب الزردشتية تنبىء عن دعوة الحق التى يجيء بها النبى الموعود وفيها اشارة الى البادية العربية ، ويترجم نبذة منها الى اللغة الانجليزية معناها بغير تصرف « ان امة زردشت حين ينبذون دينهم

يتضعضعون وينهض رجل فى بلاد العرب يهزم اتباعه فارس ويخضع الفرس المتكبرين ، وبعد عبادة النار فى هياكلهم يولون وجوههم نحو كعبة ابراهيم التى تطهرت من الاصنام، ويومئذ يصبحون وهم اتباع للنبى رحمة للعالمين وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ ؛ وهى الاماكن المقدسة للزردشتيين ومن جاورهم ، وان نبيهم ليكونن فصيحا يتحدث بالمعجزات » (١)

وقد اشار المؤلف بعد الديانات الاسيوية الكبرى الى فقرات من كتب العهد القديم والعهد الجديد فقال ان النبى عليه السلام هو المقصود بما جاء فى الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية : « جاء الرب من سيناء واشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران واتى من ربوات القدس ومن يمينه نار شريعة لهم »

وجاء بالنص العبرى كما يلى :

« ويومر يهووه مسينائى به وزارح مسعير لامو هو فيع مهر باران واتا مر ببوث قودش ميميفو ايش داث لامو »

فترجمه هكذا : « وقال ان الرب جاء من سيناء ونهض من سعير لهم وسطع من جبل فاران وجاء مع عشرة آلاف قديس ، وخرج من يمينه نار شريعة لهم »

وقال ان الشواهد القديمة جميعا تنبىء عن وجود فاران فى مكة ، وقد قال المؤرخ جيروم واللاهوتى يوسبيوس Eusebius « ان فاران بلد عند بلاد العرب على مسيرة ثلاثة ايام الى الشرق من ايلة »

---

(١) صفحة ٤٧ من كتاب Mohammed In World Scriptures

ونقل عن ترجمة التوراة السامرية التى صدرت فى سنة ١٨٥١ ان اسماعيل « سكن برية فاران بالحجاز واخذت له امه امرأة من ارض مصر » ، ثم قال ان سفر العدد من العهد القديم يفرق بين سيناء وفاران اذ جاء فيه ان بنى اسرائيل ارتحلوا « من برية سيناء ، فحلت السحابة فى برية فاران » ... ولم يسكن ابناء اسماعيل قط فى غرب سيناء فيقال ان جبل فاران واقع الى غربها . وفى الاصحاح الثالث من كتاب حبقوق ان « الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران » فهو اذن الى الجنوب حيث تقع تيمان بموضعها الذى تقع فيه اليمن مرادفتها بالعربية . ولم يحدث قط ان نبيا سار بقيادته عشرة آلاف قديس غير النبى محمد عليه السلام ، وقوديشن تترجم بقديس فى راى المؤلف الذى يناقش ترجمتها بالملائكة فى الترجمات الاخيرة . كذلك لم يحدث قط ان نبيا غيره جاء بشريعة بعد موسى الكليم ، فقول موسى الكليم « ان نبيا مثلى سيقيم لكم الرب الهكم من اخوتكم ابناء ابراهيم » يصدق على النبى العربى صاحب الشريعة ولا يصدق على نبى من ابناء ابراهيم تقدمه فى الزمن ، ويرجح المؤلف ان المدينة التى تعلم فيها موسى عليه السلام فى صحبة يثرون — اى شعيب — لم تكن هى مديان الاولى التى تخربت بالزلزال كما جاء فى القرآن الكريم ، ولكنها كانت « مدينة » الحجاز التى سميت يثرب على اسم يثرون ، ومما يعزز ذلك ان بطليموس الجغرافى يقول بوجود موضعين باسم مديان وان كان قد اخطأ على راى المؤلف فى تعيين الموضعين . وقد جاء فى سفر التكوين ان مديان ابن ابراهيم الذى سميت مديان الاولى باسمه كان له اخ

اسمه عفار ، وهو الذى يقول نوبل Knoble شارح التوراة ان ذريته كانت تنزل فى عهد البعثة الاسلامية الى جوار يثرب ، ولعل موسى تلقى اسمه فى ذلك الجوار . اذ كانت تسميته العربية ارجح من تسميته المصرية او العبرية، فان ابنة فرعون لا تسميه بالعبرية ولا يسميه بها من يريد خلاصه من مصير المولودين العبريين ، وصحيح ان كلمة ميسو Mesu بالمصرية معناها الطفل كما يقول بعض الشراح المحدثين ، ولكن اليهود لا يرتضون لنبيهم ومخرجهم من ارض مصر اسما مستعارا من المصريين

ومن الجماعات التى عنيت عناية خاصة بهذه النبوءات جماعة الاحمدية الهندية التى ترجمت القرآن الكريم الى اللغة الانجليزية ، فانها افردت للنبوءات والطوالع عن ظهور محمد عليه السلام بحثا مسهبا فى مقدمة الترجمة شرحت فيه بعض ما تقدم شرحا مستفيضا وزادت عليه ان نبوءة موسى الكليم تشتمل على ثلاثة اجزاء : وهى التجلى من سيناء وقد حصل فى زمانه والتجلى من سعير او جبل الشعر وقد تجلى فى زمن السيد المسيح ، لان هذا الجبل ـ على قول الجماعة الاحمدية ـ واقع حيث يقيم ابناء يعقوب الذين اشتهروا بعد ذلك بابناء اشعر ، واما التجلى الثالث فمن ارض فاران وهى ارض التلال التى بين المدينة ومكة،وقد جاء فى كتاب فصل الخطاب ان الاطفال يحيون الحجاج فى تلك الارض بالرياحين من « برية فاران » .. وقد اصبح ابناء اسماعيل امة كبيرة

كما جاء فى وعد ابراهيم فلا يسعهم شريط من الارض على تخوم كنعان ، ولا وجـه لانكار مقامهم حيث أقام العرب المنتسبون الى اسماعيل ولا باعث لهم على انتحال هـذا النسب والرجوع به الى جارية مطرودة من بيت سيدها . وقد جاء فى التوراة اسماء ذرية اسماعيل الذين عاشوا فى بلاد العرب ، واولهم نبايوت او نبات ابو قبائل قريش ، الذى يقرر الشارح كاتربكارى Katripikari انه أقام بذريته بين فلسطين وينبع ميناء يثرب ، ويقرر بطليموس وبلينى ان ابناء قدور ـ قيدار الابن الثانى لاسماعيل ـ قد سكنوا الحجاز ، ويضيف المؤرخ اليهودى يوسفيوس اليهم ابناء ادبيل الابن الثالث فى ترتيب العهد القديم ، ولا حاجة الى البحث الطويل عن مقام ابناء دومة وتيماء وقدامة واكثر اخوتهم الباقين فان الاماكن التى تنسب اليهم لا تزال معروفة باسمائها الى الآن ، ومن نبوءة اشعيا التى سبقت مولد السيد المسيح بسبعمائة سنة يظهر جليا ان ابنـاء اسماعيل كانوا يقيمون بالحجاز ، ففى هذه النبوءة يقول النبى اشعيا من الاصحاح الحادى والعشرين : « وحى من جهة بلاد العرب تبيتين يا قوافل الدانيين . هاتوا ماء للاقاة العطشان يا سكان ارض تيماء . . وافوا الهارب بخبزه فانهم من امام السيوف قد هربوا . من امام السيف المسلول ومن امام القوس المشدودة ومن امام شدة الحرب . فانه هكذا قال لى السيد فى مدة سنة كسنة الاجير يفنى كل مجد قيدار »

ويعود المترجمون من الجماعة الاحمدية فيفسرون هزيمة

قيدار بهزيمة المكيين فى وقعة بدر ، وهى الهزيمة التى حلت بهم بعد هجرة النبى الى المدينة بنحو سنة كسنة الاجير

ويقرنون هذه النبوءة بنبوءة اخرى من الاصحاح الخامس فى سفر اشعيا يقول فيها : « ويرفع راية للامم من بعيد ويصفر لهم من اقصى الارض فاذا هم بالعجلة ياتون .. ليس فيهم رازح ولا عاثر ، لاينعسون ولاينامون ولا تنحل حزم احقائهم ولا تنقطع سيور احذيتهم . سهامهم مسنونة وجميع قسيهم ممدودة . حوافر خيلهم كانها الصوان وبكراتهم كالزوبعة .. »

وهـذه نبوءة عن رسول ياتى من غير ارض فلسطين لم تصدق على احد غير رسول الاسلام

وتلحق بهذه النبوءة نبوءة اخرى من الاصحاح الثامن فى سفر اشعيا جاء فيها ان الرب انذره ان لا يسلك فى طريق هـذا الشعب قائلا : « لا تقولوا فتنة لكل ما يقول له هـذا الشعب فتنة ولا تخافوا خوفه ولا ترهبوا . قدسوا رب الجنود فهو خوفكم وهو رهبتكم ، ويكون مقدسا وحجر صدمة وصخرة عثرة لبيتى اسرائيل وفخا وشركا لسكان اورشليم فيعثر بها كثيرون ويسقطون فينكسرون ويعلقون فيلقطون .. صر الشهادة . اختم الشريعة بتلاميذى . فاصطبر للرب الساتر وجهه عن بيت يعقوب وانتظره »

فهذه النبوءة عن الرسول الذى يختم الشريعة تصدق على نبى الاسلام ولا تصدق على رسول جاء قبله ولا بعده

وتلحق بهذه النبوءة ايضا نبوءة من الاصحاح التاسع عشر فى سفر اشعيا يذكر فيها ايمان مصر بالرسول المنتظر « وفى ذلك اليوم يكون مذبح للرب فى وسط ارض مصر وعمود للرب عند تخمها ، فيكون علامة وشـــهادة لرب الجنـــود فى ارض مصر لانهم يصرخون الى الرب بسبب المضايقين فيرسل لهم مخلصا ومحاميا وينقذهم فيعرف الرب فى مصر ويعرف المصريون الرب فى ذلك اليوم ويقدمون ذبيحة وتقدمة وينذرون للرب نذرا ويعرفون به ويضرب الرب مصر ضاربا فشافيا فيرجعون الى الرب فيستجيب لهم ويشفيهم . فى ذلك اليوم تكون سكة من مصر الى اشور فيجيء الاشوريون الى مصر والمصريون الى اشور ويعبد المصريون مع الاشوريين . فى ذلك اليوم يكون اسرائيـــل ثالثا لمصر ولاشور بركة فى الارض ، بها يبارك رب الجنود قائلا : مبارك شعبى مصر وعمـــل يدى اشـــور وميراثى اسرائيل »

فالذى حدث من قدوم اهل العراق الى مصر وذهاب اهل مصر الى العراق انما حدث فى ظل الدعوة الاسلامية ، ولم تتوحد العبادة بينهم قبل تلك الدعوة ، وان النبوءة ستتم غدا على غير ما يهواه بنو اسرائيل ، اذ تكون البركة لمصر واشور ولا تكون اسرائيل الا لاحقة بكلتا الامتين

ثم ينتقلون بالنبوءات الى سفر دانيـــال حيث جاء فى الاصحاح الثانى : « انت ايها الملك كنت تنظر واذا بتمثال عظيم . هذا التمثال العظيم البهى جدا وقف قبالتك ومنظره

هائل . راس هذا التمثال من ذهب جيد ، وصدره وذراعاه من فضة ، وبطنه وفخذه من نحاس ، وسقاه من حديد ، وقدماه بعضها من حديد والبعض من خزف . كنت تنظر الى ان قطع حجر بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما . فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معا وصارت كعصافة البيدر فى الصيف فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان . اما الحجر الذى ضرب التمثال فصار جبلا كبيرا وملأ الارض كلها »

ويلى ذلك تفسير النبى دنيال لهذا الحلم اذ يقول : « انت ايها الملك ملك ملوك لان اله السماوات اعطاك مملكة واقتدارا وسلطانا وفخرا ، وحيثما يسكن بنو البشر ووحوش البر وطيور السماء دفعها ليدك وسلطها عليك جميعها ، فانت هذا الراس من ذهب وبعدك تقوم مملكة اخرى اصغر منك ومملكة ثالثة اخرى من نحاس فتتسلط على كل الارض وتكون مملكة رابعة صلبة كالحديد يدق ويسحق كل شىء ، وكالحديد الذى يكسر تسحق وتكسر كل هؤلاء وبما رايت القدمين والاصابع بعضها من خزف والبعض من حديد فالمملكة تكون منقسمة وتكون فيها قوة كالحديد من حيث انك رايت الحديد مختلطا بخزف الطين واصابع القدمين بعضها من حديد وبعضها من خزف فبعض المملكة يكون قويا والبعض قصما ، وبما رايت الحديد مختلطا بخزف الطين فانهم يختلطون بنسل الناس ولكن لا يتلاصق هذا بذاك كما ان الحديد لا يلتصق بالخزف ، وفى ايام هؤلاء الملوك يقيم اله السموات مملكة لن تنقرض ابدا وملكها

لا يترك لشعب آخر وتسحق وتفنى كل هذه الممالك وهى تثبت الى الابد ، لانك رأيت انه قد قطع حجر من جبل لا بيدين ، فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب .. الله العظيم قد عرف الملك ما سيأتى بعد هذا الحلم حق وتعبيره يقين »

وتعود الجماعة الاحمدية الى التاريخ لتستمد منه التعليق على تعبير النبى دنيال لتلك الرؤيا ، فمن كلام النبى دنيال يفهم ان الرأسّ الذهبى هو ملك بابل ، وان الصدر والذراعين من الفضة تعبر عن مملكة فارس وميدية التى ارتفعت بعد دولة بابل ، وان الرجلين من النحاس تعبران عن الدولة الاغريقية فى ظل الاسكندر لقيامها بعد زوال حكم الفارسيين والميديين ، وان القدمين من الحديد تعبران عن الدولة الرومانية التى ارتفعت بعد ذهاب ملك الاسكندر ، وتقول الرؤيا عن هذه الدولة الاخيرة ان قدما من قدميها خزف والاخرى حديد ، وهو وصف يشير الى جزء من الدولة فى القارة الاوروبية وجزء منها فى القارة الاسيوية ، فالقدم الحديد هى سيطرة الامة الواحدة والعقيدة الواحدة وهذه السيطرة تستولى على اقطار شاسعة وموارد غزيرة ولكنها تنطوى على الضعف الكامن من جراء التفكك بين اوصال الشعوب ، والرؤيا صريحة فى وشك انحلال الدولة الرومانية فى السنوات الاخيرة لهذا السبب ، وتستطرد من ثم الى امور اهم واخطر اذ تقول : « انك كنت تنظر الى ان قطع حجر بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما . فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معا وصارت كعصافة

البيدر فى الصيف فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان . اما الحجر الذى ضرب التمثال فصار جبلا كبيرا وملأ الارض كلها . . »

تقول الجماعة : « فهذه نبوءة بظهور الاسلام . فقد اصطدم الاسلام فى صدر الدعوة بدولة الرومان ثم بدولة فارس ، وكانت دولة الرومان يومئذ قد بسطت سلطانها على ملك الاغريق الاسكندرى فبلغت من المنعة غايتها ، وكانت دولة فارس قد بسطت سلطانها على بابل ، ثم ضربتهما قوة الاسلام فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة معا وصارت كعصافة البيدر فى الصيف، وهكذا ينبىء ترتيب الحوادث وتعبيرها فى رؤيا دنيال انباء لا ريب فى معناه . اذ كلنا نعلم ان بابل خلفتها فارس وميدية وان سطوة فارس وميدية كسرتها سطوة الاسكندر ، وان ملك الاسكندر خلفته الدولة الرومانيـــة التى اقامت من عاصمتها القسطنطينية اركان مملكة اوروبية اسيوية ، ثم انهزمت هـذه المملكة وادال منها الفتح الاسلامى وغزوات النبى والصحابة »

وهذا الحجر الذى جاء فى رؤيا دنيال يذكره اشـــعيا والحوارى متى ، ففى الاصحاح الثامن من سفر اشـــعيا انه « يكون مقدسا وحجر صدمة وصخرة عثرة لكل من بيتى اسرائيـــل ، وفخا وشركا لسكان اورشليم ، ويعثر بهما كثيرون ويسقطون ويعلقون فيلقطون »

وفى الاصحاح الحادى والعشرين من انجيل متى يقول : « لذلك اقول لكم ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لامة

تعمل اثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه »

كذلك يذكره المزمور الثامن عشر بعد المائة اذ يقول : « ان الحجر الذى رفضه البناءون قد اصبح عقد البناء وركن الزاوية »

ويتبين من كلام السيد المسيح فى الاصحاح الحادى والعشرين من انجيل متى المتقدم ذكره ان هذه النبوءة تنبىء عن زمن غير زمن السيد المسيح ، اذ يقول عليه السلام : « اما قرأتم قط فى الكتب ان الحجر الذى يرفضه البناءون قد صار رأس الزاوية . فمن قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى اعيننا »

ثم تفضى النبوءة ـ نبوءة النبى دنيال ـ الى عقباها فيصبح الحجر جبلا عظيما ويملأ الارض كلها . فان هذا هو الذى حدث بعد انتشار الدعوة المحمدية . فان الرسول الكريم وصحابته هزموا قيصر وكسرى واصبح المسلمون سادة للعالم المعمور كله فى ذلك العصر ، وصار الحجر جبلا عظيما فظل زمام العالم فى ايدى اتباع محمد الف سنة

ثم تتم نبوءات العهد القديم بنبوءات العهد الجديد ، ويستشهد جماعة الاحمدية بالاصحاح الحادى والعشرين من انجيل متى حيث يقول السيد المسيح : « اسمعوا مثلا آخر . كان انسان رب بيت غرس كرما واحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبنى برجا وسلمه الى كرامين وسافر ولما قرب وقت الاثمار ارسل عبيده الى الكرامين ليأخذ اثماره . فأخذ الكرامون عبيده وجلدوا بعضا وقتلوا بعضا

ورجموا بعضا ، ثم ارسل اليهم ابنه اخيرا قائلا انهم يهابون ابنى . فأما الكرامون فلما راوا الابن قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث هلموا نقتله ونأخذ ميراثه ، فأخذوه واخرجوه خارج الكرم وقتلوه ، فمتى جاء صاحب الكرم فماذا يفعل باولئك الكرامين ؟ قالوا له انه يهلك اولئك الاردياء هلاكا رديئا ويسلم الكرم الى كرامين آخرين يعطونه الاثمار فى اوقاتها .. قال لهم يسوع : اما قراتم قط فى الكتب ان الحجر الذى رفضه البناءون قد صار رأس الزاوية ؟.. من قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى اعيننا .. لذلك اقول لكم ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لامة تعمل اثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه . ولما سمع الكهنة والفريسيون امثاله عرفوا انه تكلم عليهم ، واذ كانوا يريدون ان يمسكوه خافوا من الجموع لانه كان عندهم مثل نبى »

هذا المثل يبحثه كتاب المقدمة لترجمة القرآن فيقولون أن السيد المسيح قد لخص به تاريخ الأنبياء والرسل أجمعين . فالكرم هو الدنيا والكرامون العاملون فيه هم الجنس البشرى الكادح فى دنياه ، والثمرات التى يريد صاحب الكرم أن يحصلها هى ثمرات الفضيلة والخير والتقوى ، والخدم الموفدون من صاحب الكرم الى الكرامين هم الرسل والأنبياء ، ولما جاءهم السيد المسيح بعد اعراضهم عن الرسل والانبياء فغدروا به وانكروه عوقبوا بتسليم الكرم الى كرامين آخرين ونزع ملكوت الله منهم لتعطاه الأمة الاخرى الموعودة بالبركة مع امة اسحاق ، وهى امة

اسماعيل ونبيها العظيم محمد عليه السلام ، وهو الذى يصدق عليه وعلى قومه انهم كانوا الحجر المرفوض فأصبح هذا الحجر زاوية البناء من سقط عليه رضه ومن أصيب به فهو كذلك مرضوض

وتتلو هذه النبوءة فى انجيل متى نبوءة متممة من الانجيل نفسه حيث جاء فى الاصحاح الثالث والعشرين منه خطابا لبنى اسرائيل « هو ذا بيتكم يترك لكم خرابا ، لانى أقول لكم انكم لاترونني من الآن حتى تقولوا مبارك الآتى باسم الرب»

وفى الاصحاح الاول من انجيل يوحنا نبأ يحيى المغتسل أو يوحنا المعمدان مع الكهنة واللاديين « اذ سألوه من أنت ؟ فاعترف ولم ينكر وقال انى لست أنا المسيح . فسألوه : 'ذن ماذا ؟ أأنت ايليا ؟ فقال لا . قالوا : أأنت النبى ؟ فأجاب : لا فقالوا له : من أنت لنعطى جوابا للذين أرسلونا ؟ ماذا تقول عن نفسك ؟ قال : انا صوت صارخ فى البرية ، قوموا طريق الرب كما قال اشعيا النبى »

ويعقب أصحاب المقدمة للترجمة القرآنية على هـذه النبوءات فيقولون انها كانت ثلاثا فى عصر الميلاد المسيحى كما هو واضح من الاسئلة والاجوبة : نبوءة عن عودة ايليا ، ونبوءة عن مولد السيد المسيح ، ونبوءة عن نبى موعود غير ايليا والسيد المسيح

ولقد أعلن السيد المسيح كما جاء فى الاصحاح الحادى عشر من انجيل متى:« ان جميع الانبياء والناموس الى يوحنا تنبأوا ، وان أردتم أن تقبلوا فهذا ـ اى يحيى المغتسل ـ هو ايليا المزمع أن يأتى »

وواضح من الاصحاح الاول من انجيل لوقا ان الملك بشر زكريا بان امرأته ستلد له ولدا وتسميه يوحنا . « وانه يكون عظيما امام الرب لا يشرب خمرا ولا مسكرا ويمتلىء من بطن امه بالروح القدس ويرد كثيرين من بنى اسرائيل الى الرب الههم ، ويتقدم امامه بروح ايليا وقوته ليرد قلوب الآباء الى الأبناء »

وفى الاصحاح التاسع من انجيل مرقس يقول السيد المسيح : « ان ايليا ايضا قد اتى وعملوا به كل ماارادوا كما هو مكتوب عنه »

ويتكرر ذلك فى انجيل متى اذ يقول : « ان ايليا قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما ارادوا »

فالنبى ايليا قد تقدم اذن فى عصر الميلاد ، وقد جاء فيه المسيح ايضا ثم بقى ذلك النبى الموعود . ولم يظهر بعد السيد المسيح نبى صدقت عليه الصفات الموعودة غير محمد عليه السلام ، وكلام السيد المسيح فى الاصحاح السادس عشر من انجيل يوحنا يبين للتلاميذ « انه خير لكم ان انطلق لانه ان لم انطلق لا يأتيكم المعزى ، ولكن ان ذهبت ارسله اليكم ، ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطيئة وعلى بر وعلى دينونة . فأما على خطيئة فلانهم لا يؤمنون بى ، واما على بر فلانى ذاهب الى ابى ولا ترونني ايضا ، واما على دينونة فلان رئيس هذا العالم قد دين ، وان لدى امورا كثيرة اقولها لكم ولكن لا تستطيعون ان تحتملوها الآن ، واما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم الى الحق جميعه ، لانه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم

بأمور آتية ، وذاك يمجدني لانه يأخذ مما لى ويخبركم ، وكل ماللأب فهو لى . لهذا قلت انه يأخذ مما لى ويخبركم وبعد قليل لاتبصرونني .. »

وقد جاء نبى الاسلام ممجدا للسيد المسيح يسميه روح الله ويجدد رسالته لانها رسالة الله

وبعد تأويلات شتى من قبيل ماتقدم تختتم الجماعة الاحمدية بحثها بالاشارة الى ماجاء فى الاصحاح الثالث من أعمال الرسل الذى ينبىء عن تتابع النبوءات من صمويل الى السيد المسيح بظهور نبى كموسى الكليم صاحب شريعة يحقق الوعد لابناء ابراهيم ويبارك جميع قبائل الارض ، ويكون هذا النبى من اخوة بنى اسرائيل لا منهم . فهو من ذرية اسماعيل لا من ذرية اسحاق

ان أبناء الهند وابناء فارس ـ كما قدمنا ـ قد توفروا على هذا الباب فى استخراج خفايا الكلمات والحروف والمقابلة بين المضامين والتأويلات واتمام أجزاء منها بأجزاء متفرقة فى شتى المصادر والروايات ، ولكنهم لم ينفردوا بالبحث فى هذه النبوءات وهذه الطوالع خاصة وجاراهم فيها الباحثون من سائر الامم واجتمعت فى كتاب « فتح الملك العلام فى بشائر دين الاسلام » (١) متفرقات لم ترد فيما اسلفناه من البحوث الهندية ، أو وردت عن منهج غير منهجها ، نلخص بعضه فيما يلى ولا نستقصيه لانه يقع فى اكثر من مائتين وستين صفحة

(١) لمؤلفيه الاستاذين أحمد ترجمان ومحمد حبيب

يعتمد المؤلفان على الاصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين اذ جاء فيه أن أبناء اسماعيل سكنوا « من حويلة الى شور التى امام مصر حينما تجيء نحو أشور » فهم اذن سكان الحجاز لان الحجاز هو الارض التى بين شور وحويلة اذ كانت حويلة فى اليمن كما جاء فى الاصحاح العاشر « ان يقطان ولد المورداد ، وشالف ، وحضرموت ، وبارح ، وهد ، ورام ، وأوزال ، ودقلة ، وعوبال ، وابيمايل ، وشبا ، وأوفير ، وحويلة ، ويوباب — جميع هؤلاء بنو يقطان » سكان الارض اليمانية

ويعتمدان كذلك على وعد ابراهيم الخليل فى سفر التكوين « لانه باسحاق يدعى لك نسل وابن الجارية ايضا سأجعله امة لانه نسلك » .. وانما شرط الوعد لابناء اسحاق باتباع وصايا الرب وان لا يعبدوا الها غيره والا فهم يبيدون سريعا عن الارض الجيدة كما جاء فى الاصحاح الحادى عشر من سفر التثنية . وقد عبد القوم أربابا غير الله واتخذوا الاصنام والاوثان كما جاء فى مواضع كثيرة من كتب العهد القديم

ومما اعتمد عليه المؤلفان رؤيا النبى دنيال

وفى الاصحاح التاسع منها يقول : « سبعون اسبوعا مقضية على شعبك وعلى مدينتك المقدسة لتكميل المعصية وتتميم الخطايا ولكفارة الاثم وليؤتى بالبر الابدى ولختم الرؤيا والنبوة ولمسح قدوس القديسين ، فاعلم وافهم انه من خروج الامر لتجديد اورشليم وبنائها الى المسيح الرئيس سبعة أسابيع واثنان وستون أسبوعا يعود ويبنى سوق وخليج فى ضيق الازمنة ، وبعد اثنين وستين أسبوعا يقطع المسيح . وشعب رئيس آت يخرب المدينة والقدس وانتهاؤه

بغمارة ، والى النهاية حرب وخراب .. وعلى جنـــاح الارجاس »

وهذه الخاتمة هى التي تتم كما جاء فى سفر اشعيا «على يد شعب بعيد من أقصى الارض » أو كما جاء فى ســـفر التثنية « أن الرب يجلب أمة من بعيد من أقصى الارض .. ثم يردهم الى مصر فى سفن »

وقد تم ذلك حين استدعى الرومان حاكم بريطانيا الكبرى ومعه جيش نكل باليهود وحمل طائفة منهم أسرى الى مصر وطائفة الى رومة من طريق البحر سنة ١٣٢ . فلم تنته حرب الرومان سنة ٧٠ ميلادية بل جاءت بعدها تلك الحرب التالية مصدقة لنبوءة الدمار على يد القادم من بعيد ونبوءة النقل على السفن الى الديار المصرية وما وراءها

يقول المؤلفان ، ويعتمدان فى ذلك على اجماع الشراح ، أن اليوم من أسابيع دنيال سنة ، واننا اذا اضفنا اربعمائة وتسعين سنة الى سنة ١٣٢ فتلك سنة ٦٢٢ التى هاجر فيها النبى عليه السلام الى مدينة يثرب ، وبعد أربع عشرة سنة دخل جيش الاسلام القدس الشريف وبنى المســجد الاقصى فى مكان الهيكل ، وكان الفرس قد ملكوا فلســطين أربع عشرة سنة أباحوا فيها لليهود اقامة شعائرهم ثم عاد الرومان وتلاهم المسلمون . فكانت السنون التى مضت بعد الهجرة النبوية مقابلة لتلك السنين التى ارتفع فيها الحجر عن اليهود على عهد الدولة الفارسية

▭

هذه العلامات انما هى نماذج لاضعاف اضعافها لم نحصرها لانها تستغرق مئات الصفحات ولا يلزمنا حصرها جميعا

لان الامثلة المتقدمة تكفى للتعريف بها وان لم تجمعها بحذافيرها ونحن امام هذه البحوث المستفيضة نتوخى فيها الحد الوسط بين الفضول وهو جمع هذه البحوث كلها فى هذه الرسالة التى لا تتوقف على العلم ببحوث العلامات والطوالع جميعا وبين النقص وهو اهمال هذه البحوث كل الاهمال فى رسالة تدور على بيان مقدمات النبوة الاسلامية وعلى الآراء المختلفة فى شرح ماسبقها من هذه المقدمات ، ومهما يكن من رأى القارىء فى هذا العصر فالرأى الذى رآه الناس منذ ألوف السنين ولا يزالون يرونه لابد أن يكون له مكانه التاريخى ودلالته النفسية فى هذا السياق

ولسنا هنا بصدد الاسهاب والتفصيل فى نقد الاساليب التى يعتمدها الباحثون فى حل الرموز او خلق هـــذه الرموز على الاصح فى بعض الاحيان ، ولكننا نوجز فنقصر التعقيب على مقطع الآراء الذى لايطول عليـــه خلاف بين المنصفين ، فكل من راجع العلامات النبوية فى كتب الديانات من أقدمها قبل موسى وعيسى ومحمد عليه السلام الى يومنا هذا يرى ولاشك ان العلامات التى لخصناها هنا من أقواها وأوضحها وأقلها اعتسافا واستكراها للالفاظ والتراكيب على غير معانيها ، وانما ننظر اليها على كل احتمال مفروض فلا نرى أنها تغنى عن الدلائل الكونية ولا نعلم أن قيام الدعوة المحمدية قد اعتمد عليها عند أحد من المسلمين الأولين أو عند أحد من الذين دانوا بالاسلام فى الزمن الحديث

فاذا فرضنا أن التخريج صحيح فى كل ما أورده الباحثون المتقدمون وغيرهم فان هذه العلامات لم تنفع أحدا من الذين

كانوا يقرأون التوراة فى عهد الدعوة المحمدية ولم نعلم لهم موقفا من الدعوة غير اللجاجة والمكابرة والاشتداد فى الانكار على نحو لم نعلمه من الجاهليين والذين لم يطلعوا على حرف من كتب العهد القديم ، واذا قدرنا أن هذه العلامات لم ترد قط فى كتاب سابق للدعوة المحمدية لم يكن ذلك مما يضير هذه الدعوة أو يصدها عن طريقها أو يسلبها وسيلة من وسائل الاقناع والذيوع التى اعتمدت عليها

هذا على تقدير الصحة والصواب فى كل تخريج وفى كل علامة مذكورة مشروحة ، فأما على غير هذا التقدير فلا حاجة بنا اذن الى تعقيب طويل أو قصير

ولا ندع الكلام على النبوءات الغيبية حتى نقرر فيها الرأى الذى يسلمه المنصفون ولا يجرؤ أحد على انكاره باسم العلم أو باسم المنطق أو باسم القياس الصحيح

فما من أحد يجرؤ على أن يقول ـ باسم العلم ـ ان الالهام بالغيب مستحيل . لانه اذا جزم باستحالته وجب عليه قبل ذلك ان يجزم بأمور كثيرة لايستطيع عالم أمين أن يقررها معتمدا على حجة أو سند قويم

يجب على العالم الذى يجزم باستحالة الالهام بالغيب أن يقرر لنا أنه عرف حقيقة الزمن وعرف ـ من ثم ـ حقيقة المستقبل ، ويجب عليه مع ذلك أن يقرر تجريد الكون من عنصر العقل غير عقل الانسان والحيوان

فما هى حقيقة الزمن ؟ هل هو موجود فى الماضى والحاضر والمستقبل أو هو يوجد لحظة واحدة ثم يزول ؟ وما هى هذه اللحظة الواحدة ؟ وما مدى احاطتها بالبعيد والقريب

من الامكنة الشاسعة فى هذه الاكوان ؟ وهل المستقبل موجود الآن أو هو عدم يوجد لحظة بعد لحظة ؟ وكيف يوجد العدم بعد أن لم يكن له وجود ؟

ان العالم الذى يجزم فى قول من هذه الاقوال باسم العلم يدعى على العلم كذبا وينم على عقل ضيق لا يصلح للنظر فى هذه الآفاق

فاذا كنا لا ننفى وجود المستقبل نفيا مقطوعا به مستندا الى حجة أو بينة فالغيب غير مستحيل والعلم به لا يدخل فى باب الممنوعات او غير المعقولات

واذا كان عنصر العقل فى هذه الاكوان اكبر من أن يحصره رأس الانسان وحده فانتقال المعرفة منه الى عقل الانسان جائز جدا او جائز على الاقل كجواز الانتقال بين الافكار على تباعد الامكنة والعقول . ولا ندعى ان هذا الانتقال الفكرى بين عقول الناس قد ثبت فى هذا الزمن ثبوتا قاطعا فى جميع التجارب والمحاولات . فان هذا الانتقال ـ المسمى بالتلبائية ـ يصيب ويخطىء ويكفى انه لم يبطل كل البطلان باعتراف الملحدين والماديين الى جانب المتدينين والمؤمنين

فاذا كان وجود المستقبل لم يبطل فكيف يبطل العلم بما يجرى فيه ؟

انه قد يبطل اذا تحقق بالبينة ان عنصر العقل وراء عقل الانسان مستحيل ، فاذا كان وجود هذا العقل الاكبر لم يمتنع ولم يدخل فى باب المستحيلات فكل دعوى هنا للجزم بانكار الغيب وانكار العلم به أو الايحاء به الى انسان من الناس فانما هى دعوى تهجم على الواقع ولا يكفى ان يقال

فيها أنها تهجم على الغيوب والمجهولات

فليكن رأينـــا اذن فى تخريجات الباحثين عن الطوالع والعلامات مايكون ، فان هذا الرأى لا يبطل الايمان بالغيب الا على لسان مجازف يخبط بالقول حيث يجهل المدى الذى يخوض فيه . وانما نقبل تلك التخريجات او لانقبلها لان الباحثين فيها اصابوا أو اخطأوا فى التخريج والتأويل ،وانما نقبلها أو لانقبلها كرة أخرى لان قيام الدعوات النبـوية متوقف عليها أو غير متوقف عليها بل ماض فى سبيله على اختلاف هذه العلامات

اما الانباء بما فى الغيب بمشيئة العالم به والقادر عليـه فلا يمنعه علم ولا منطق ولا تجربة قاطعة من تجارب العيان

الأحوال العالمية

قبل الدعوة المحمدية

مقدمات النبوة

والآن ، وقد اقررنا الطوالع والعلامات فى قرارها الذى يسهل الاتفاق عليه ، نطرق الأبواب الواسعة التى تتفتح امامنا للبحث فى مقدمات النبوة الاسلامية ، وهى ابواب البحث فى الحوادث التاريخية والآيات الكونية . وليس اثبت منها فى مقام الكلام على النبوة الاسلامية بصفة خاصة بين سائر النبوءات

تاريخ العالم كله ـ قبيل عصر الدعوة الاسلامية ـ هو تاريخ هذه المقدمات حول بلاد العرب وفى صميم الجزيرة العربية من اجوافها الى أطرافها

فلم يكن للعالم كله فى تلك الفترة حالة لاتوصف بالسوء ولا يقال فيها بالاجمال انها حالة فساد وانحلال

فلا حالة للعلم ولا للسياسة ولا للاخلاق ولا للمرافق العامة لا توصف بتلك الصفة ولا تغلب فيها السيئات كل الغلب على الحسنات

واذا نظرنا الى الاحوال فى جملتها وجدنا انها هى الاحوال التى تنادى فى كل مكان بالحاجة الى الدعوة الدينية

ان ظاهرة واحدة كانت تلف تلك الظواهر جميعا فى طياتها ، وهى فقدان الثقة بكل شىء ، ولا معنى لذلك فى

كلمة موجزة الا أن الثقة هى المطلوبة ، وان الايمان هو دواء هذا الداء الذى استشرى فى كل مكان

ونبدأ بالأديان الكبرى التى شاعت فى العالم المعمور قبيل الدعوة المحمدية ، وهى على حسب قدمها المجوسية واليهودية والمسيحية

فلم يكن اتباع دين من هذه الأديان على استقرار فى عقيدتهم أو على ثقة بأحبارهم وأئمتهم ، وأولها وأشدها اضطرابا ديانة الدولة الفارسية أو دياناتها المتعددة التى تشملها الثنوية اى الايمان برب للنور ورب للظلام وعالم للخير وعالم للشر فى كون واحد

فقد كانت هذه المجوسية تستعصى على الدعاة المصلحين من أيام الوثنية الآرية الأولى التى اشترك فيها الهنود والفارسيون ، وقد عمل « زرادشت » جهده لتطهيرها من الوثنية واخلائها من شعائر الهياكل والمحاريب الخفية فلم يتيسر له من ذلك غير القليل ، وجاء بعده مصلحون من أتباعه مزجوا الفلك بالتنجيم بالخرافة بالعبادة فى نحلة واحدة ، ولم يعرف الناس عنهم على البعد الى عصر الميلاد المسيحى الا انهم رصدة للكواكب طلعة للخفايا والغيوب من وراء حجاب الظلام

وقام « مانى » الذى تنسب اليه المانوية فى القرن الثالث للميلاد فأراد ان يغلق باب الوثنية فى الشرق ويرجع الى ثنوية قريبة من ثنوية « زرادشت » وتوحيد الفلسفة العقلية ، فحول قومه من الكتابة البهلوية الى الكتابة الآرامية أو السامية ، وكاد ان يفلح فى اقناع ولاة الامر

بآرائه فى الاصلاح والتنزيه لو لم تعسدهم عليه دسائس الكهان والوزراء ، فقضى فى السجن وقيل انهم سلخوا جلده وعلقوه مصلوبا لسباع الطير

ثم كانت الطامة الكبرى فى عهد قباذ ابى كسرى انوشروان الذى حضر بعثة النبى وتلقى رسالته بالسخط والوعيد ...

ففى عهد قباذ هذا ظهر « مزدك » داعية الاباحة والفوضى فى الأموال والأعراض ، ولم يتزحزح هذا الداعية خطوة واحدة من الثنوية الى التوحيد أو مايشبه التوحيد ، وقال كما قال « مانى » من قبله ان العالم كله فى قبضة اله النور واله الظلام ، غير أنه زاد عليه « ان النور يفعل بالقصد والاختيار وان الظلمة تفعل على الخبط والاتفاق ، وان النور عالم حساس والظلمة جاهلة عمياء ، وان المزاج كان على الاتفاق والخبط لا بالقصد والاختيار ، وكذلك الخلاص انما يقع بالاتفاق دون الاختيار »

وزعم مزدك هذا انه جاء ليبطل الخلاف بين العقائد والامم وينهاهم عن المباغضة والقتال ، وانه لما كان اكثر ذلك انما يقع بسبب النساء والأموال فقد احل النساء واباح الأموال وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ ، ورد القوى البكونية الى أربع هى التمييز والفهم والحفظ والسرور ، وكل منها يعمل بسبعة من الوزراء يتبع الوزير منهم اثنى عشر روحانيون ... وكل انسان اجتمعت له اسرار الاربعة والسبعة والاثنى عشر صار ربانيا فى العالم السفلى وارتفع عنه التكليف ، وان ملك الملوك فى العالم العلوى انما يدبر بالحروف التى

مجموعها الاسم الاعظم ، ومن تصور من تلك الحروف شيئا انفتح له السر الأكبر ومن حرم ذلك بقي في عمى الجهل والنسيان والبلادة والغم في مقابلة القوى الاربع الروحانية (١) »

ويقال عن مزدك هذا انه كان عظيم الدهاء خبيرا بفنون الاقناع والاغراء ، وانه بلغ من سلطانه على قباذ انه أقنعه ببذل زوجته لمن يشتهيها ليعلم الناس الصدق في ايمانه ويقتدوا به في ترك التباغض والملاحاة على الاعراض والعروض فأوشك قباذ أن يفعل ما أوحاه اليه لولا أن علم ولي عهده كسرى فدخل عليه باكيا متضرعا يتوسل اليه الا يذله هذا الاذلال ويبتذل أمه أمام الناس هذا الابتذال ، ثم تمالأت عصبة ولي العهد فقتلوه وتعقبوا شيعته بالقمع والتشريد

وعلى الرغم من تتابع المصلحين الذين اجتهدوا غاية اجتهادهم في تطهير الديانة المجوسية من الوثنية والمراسم الهيكلية لم تزل عقيدتهم جميعا في الأرواح والشياطين حائلا بينهم وبين التوحيد بل حائلا بينهم وبين الثنوية على بساطتها الاولى ، فان موالاة الارواح ومحاذرة الشياطين تسوقانهم الى ضروب من العبادة والزلفى لطوائف شتى من الأرباب الصغار عدا الالهين الاقدمين اله النور واله الظلام ، ولا يزال المجوس الى اليوم يبدأون صلاتهم بعد منتصف الليل ويقضون ساعات الصلاة الأولى في تلاوة الأناشيد التي يسترضون بها شياطين الظلام ، قبل انبثاق النور الأعظم عند الصباح

---

(١) الشهرستاني في الملل والنحل

اليهودية والمسيحية

أما اليهودية فقد كان قيام المسيحية فى معقلها الأكبر ايذانا حيا بنفادها وانتهائها الى الغاية من الجمود والضيق . اذ كانت المسيحية فى الواقع حركة اصلاح واسع فى جميع العقائد اليهودية التى جمدت على النصوص والمراسم وتحولت من الدين الى نقيض الدين ، ولا شىء يناقض الدين كما ناقضته تلك الأنانية القومية التى حسبت الاله المعبود ملكا لها دون سائر عباده يبيح لها فى سائر الأقوام مالا يباح فى شريعة ولا قسطاس مستقيم

وفى عصر الميلاد نفسه ظهر من حكماء اليهود من أحس الحاجة الى اصلاح عقائد قومه وشعائرهم ، فاختار فيلون الحكيم أسلوب التعبير الرمزى لتفسير مسائل الكتاب التى لاتقبلها الحكمة ، وكان مما يلفت النظر فى هذا الصدد انه رجع الى قصة ابراهيم وسارة وهاجر فعبرها على اسلوبه تعبير الرموز ، لان المسلك الذى نسب فيها الى ابراهيم لا يعقل من خليل الرحمن . فعنده ان ساره هى الحكمة الالهية وان هاجر هى الدربة الدنيوية ، وان زواج الخليل من ساره لم يثمر فى أول الامر لانه لم ينضج له قبل التمرس بحقائق الحياة ، وقد كان هذا أسلوب الفلسفة الذى أدخله بولس الرسول فى أسلوبه الدينى فقال فى رسالة غلاطية : « انه مكتوب انه كان لابراهيم ابنان واحد من الجارية والآخر من الحرة . لكن الذى من الجارية ولد حسب الجسد ، واما الذى من الحرة فبالموعد . وكل ذلك رمز . لأن هاتين هما العهدان احدهما من جبل

سيناء الوالد للعبودية الذى هو هاجر . لان هاجر جبل سيناء فى العربية ، ولكنه يقابل أورشليم الحاضرة فانها مستعبدة مع بنيها ، وأما أورشليم العليا التى هى أمنا جميعا فهى حرة ... »

وهذه ثورة على تفسير موعد ابراهيم بأسلوب العصبية والانانية تلفت النظر فيما نحن بصدده وتومىء الى ما يأتى بعدها فى الزمن المتطاول . ثم سرى الاصلاح المسيحى مسراه فمضى معه من اليهود من صلح له وبقى الجامدون على شر مما كانوا عليه قبل الدعوة المسيحية ، وجنى العناد والاصرار على الباطل جنايته المعهودة فذهبت ريح الكهانة والمراسم الهيكلية وتفرقت مراجع الديانة مع كل مجمع وكل معبد وكل طائفة ذات مذهب فى التوراة أو التلمود او تقاليد الاحبار والربانيين ، وكان من آثار هدم الهيكل سنة سبعين للميلاد أن أشياعه فقدوا وحدة المراسم بعد أن فقدوا وحدة العقيدة والروح ، فلم يأت عصر البعثة المحمدية حتى استفحل الخطب بينهم من جراء تفسيراتهم الكثيرة فنهضت بينهم طلائع الطائفة التى عرفت بعد ذلك بطائفة القرائين وانكرت كل رأى غير النصوص والحروف فى الكتب المنسوبة الى موسى الكليم ، فكان خوف التفرق سبيل النكسة الى ايام العصبية والانانية القومية ولم يكن سبيلا الى الحرية والتجديد . ومما يلفت النظر مرة أخرى أن اصلاح هذا الجمود الجديد انما اتى من قبل البلاد الاسلامية على يد سعديا المصرى وابن ميمون الأندلسى ، وان حكماء اليهود فى القرن الثالث للهجرة لم يكن

لهم مذهب فى تنزيه الاله غير مذهب علمـــاء الكلام من المسلمين

وكذلك كان يهود العالم فى عصر البعثة المحمـــدية بين اشتات يذهب كل منها مذهبه على حسب المجمع أو المعبد الذى ينتمى اليه ، وبين شراذم متعنتـين فى الجمود على الحروف والنصوص يرجعون بهذه النكسة الى الداء الذى قامت المسيحية لاصلاحه قبل بضعة قرون

فتلك حاجة جديدة الى اصلاح جديد

محنة المسيحية

وقد جاء الاســـلام والمسيحية منتشرة فى بلاد الدولة الرومانية شرقا وغربا يدين بها ملوكها ورؤساؤها ومعظم رعاياها ، وكان هؤلاء الملوك والرؤســـاء قبل تنصرهم يضطهدون المسيحيين ويعذبونهم ولا يتورعون عن لون من الوان العذاب يصبونه عليهم ، فكانت محنة عظيمة صبر لها المسيحيون الأولون صبر المؤمنين الصادقين ، ولكن هؤلاء الملوك والرؤساء كانت محنتهم للمسيحية بعد تنصرهم اشد عليها من محنة الاضطهاد والتعـذيب ، لانهم لم يكفوا عن الظلم وزادوا عليه عبث السياسة بالعقائد والآراء ، فدسوا مطامعهم بين المختلفين على تفســـير المسيحية الاولى وفرقوهم شيعا متباغضة متنافرة يرمى بعضها بعضـــا بالكفر والضلالة ، وينشب بينها الجدل فلا تتفق على قول حتى تتفتح أمامها مذاهب الخلاف على أقوال ، ولم يكن خلاف المذاهب يومئذ كخلاف المذاهب فى العصر الحاضر يسمح بوجهات النظر ولا يستلزم طرد المخالفين جميعا من

حظيرة الدين ، بل كان بحث الآباء الأولين فى سبيل الوصول الى اركان العقيدة وتقرير ما يسمى بالمسيحية وما لايحسب منها وانما يحسب من الكفر والضلالة . فلم تبق نحلة من النحل الكثيرة الا حكمت على مناقضيها بالمروق والهرطقة، وتعددت هذه النحل بين الاريوسية والنسطورية واليعقوبية والملكية على تباعد الاقوال فى الطبيعة الالهية ومنزلة الأقانيم الثلاثة منها ، ويأتى النزاع بين الكنيستين الشرقية والغربية فيقضى على البقية الباقية من الثقة والطمأنينة ، ولا يدع ركنا من أركان العقيدة بمبعدة من الجدل والاتهام، فلا جرم يتردد على الألسنة ويدون فى كتب التاريخ يومئذ ان القوم جميعا قد استحقوا العقاب الالهى وان أبناء اسماعيل قد جاءوا من الصحراء بأمر الله عقابا للظالمين والمارقين

ويستطيع القارىء ان يترجم هـذه البلبلة بحوادث السياسة ومنازعات العروش فلا يرى من حوادثها يومئذ الا زعازع من هـذا القبيل على عروش الدول والامارات واولها عرش الاكاسرة وعرش القياصرة رؤساء أكبر الدول فى ذلك الحين ، فلم يكن بين الملوك الخمسة أو الستة الذين تعاقبوا على عرش فارس أو عرش بيزنطية من مات حتف انفه أو مات مستقرا على عرشه ، ولم يكن منهم أحد كان له حق واضح فى السلطان حين وثب عليه ، ويتقلب العرش بين الغاصبين فيفزع من كان آمنا ويأمن من كان مهددا أو مشردا فى البلاد مع اختلاف الحظوة والنقمة بين الانصار والخصوم ، فلما تمادى الأمر على ذلك عاما بعد عام لم يبق من يأمن على نفسه وماله فى زمن أنصار ولا زمن خصوم،

وعم الخوف اقرب الناس الى السلطان وابعدهم منه على حد سواء

وتمت المحنة الكبرى بالقتال الدائم بين الدولتين ، فاذا بالبلد الواحد ينقلب فى الحكم بين سيادة الفرس وسيادة الروم فلا تهدأ له حال فى نظام ولا فى سلام ولا فى معاش يأمن الناس على مرافقه ومسالكه بين ميادين القتال ، وبطل الأمان كما بطل الايمان ، فلا خلاصة لهذه الاحوال جميعا غير خلاصة واحدة هى ضياع الثقة بكل منظور ومستور ، فلا أمان من السياسة ولا من الدين ولا من الأخلاق ولا من الواقع ولا من الغيب

هذه أحوال العالم وهذه هى مقدمات الدعوة الاسلامية من تلك الاحوال : مقدمات لا تأتى بنتائجها على وتيرة الداء الذى يتبعه الفناء ، ولكنها مقدمات العناية الالهية التى تدبر الدواء للداء المستحكم على غير انتظار وبغير حسبان

عالم اذا صح أن يقال عنه انه كان ينتظر شيئا من وراء الغيب فانما كان ينتظر عناية من الله

الجزيرة العربية

قبل البعثة المحمدية

كان فى الجزيرة العربية مجوس ويهود ونصارى ، وعرف أبناء الجزيرة هذه الأديان من طريق القـــدوة الفردية فى رحلاتهم ومبادلاتهم مع الأمم التى تحيط ببلادهم ، كما عرفوها من طريق الدعوة العامة التى يعززها ســـلطان الرؤساء على نحو ما حدث فى أرض غسان والحيرة ونجران

ويقول ابن قتيبة أن المجوسية كانت معروفة فى قبائل تميم ومنهم زرارة بن عدس وابنـــه حاجب ، وقد تزوج ابنته ثم ندم ... ويروى أنها كانت شائعة بين قبـــائل البحرين عامة على مقربة من فارس ، وأن لقيطا ابن زرارة ــ كما جاء فى ابن الاثير ــ تزوج بنته دختنوس وســماها بهذا الاسم الفارسى ومات عنها فقال وهو يجود بنفســه :

يا ليت شعرى عنك دختنوس
اذا أتاها الخبـــــــر المرموس
أتحلق القـــــــرون أو تميس
لا ، بل تميس انهـــا عـــروس

والأغلب على الظن أن المجوسية شاعت فى هذه القبائل لأنها كانت سهلة هينة عليهم لاتكلفهم بناء الهياكل ولا نحت الاصنام ، ولا ينكرون فى عبادتها للنار شيئا لأن اشـــعال النيران للقرى والاستسقاء واشهار الحلف لم تكن مجهولة فى البادية العربيـــة ، ولعلهم ســبقوها الى عبادة بعض الكواكب لأنهم كانوا أحوج الى رصد الأنواء والاهتـــداء

بالنجم فى سفر الليل حتى جعلوا له اسما خاصا من السرى والادلاج وغيرهما من الرحلة فى سائر أوقات الظلام

ولعل احدا منهم لم يكن يلتفت الى مجوسية المجوس الا حين يحدث الزواج بالمحارم التى لا يحلها عامة العرب ، فأما فيما عدا ذلك فقد كانت مراسم الدين عادات كغيرها من عادات البداوة فى الأعراس والمآتم وتعظيم الأسلاف والأرواح ، لا ينكرها المجوسى ولا اليهودى ولا النصرانى من عرب الجاهلية

واذا كان عرب البحرين قد عرفوا المجوسية فقد عرفوا الصابئين الذين كانوا يقيمون على مقربة من بلادهم ولكنهم لم يقتدوا بهم فى عقيدتهم لكثرة قيودها واشراطها وكتمان الصابئين ما كانوا يؤمنون به مخالفا لمن حولهم ، وقد كانوا يخالفون كل دين فى اشياء ويخالفونه فى اشياء ، ويجنحون الى العزلة والاعتكاف فلا يصل الى أسرارهم الا من تعمد البحث عنها والنفاذ اليها من طلاب المعرفة والمتنسكين والمتحنفين ، والظاهر من اصول كتابتهم النبطية ان الصلة بينهم وبين نبط الحجاز الشمالى عن طريق العراق والعقبة كانت أوثق وأقرب من صلاتهم بسكان البحرين والشواطىء اليمانية ، ولهذا وجد فيهم من ينتمى الى جد يسمونه كاظم بن تارح يزعمون انه أخو ابراهيم الخليل ، وكيفما كانت علاقة العرب بموطن الصابئة فلم توجد بين العرب قبيلة كبيرة تدين بملة الصابئة كما دانت تميم بالمجوسية . لأن هذه الملة الصابئية بطبيعتها لا تنتقل الى طائفة كبيرة بعيدة من موطنها على موارد الماء ، وانما ينتقل اليها فرد أو أفراد يفضلون عقيدتها على العقائد الوثنية من حولها ،

ولا يخفى شأن الارتباط بالمكان فى العقيدة الصابئية ، فان اشتراط القرب من الماء فريضة من فرائضهم العـــامة ، واسمهم الأول فى أصله ماخوذ من سبح لا من سبأ التى ينتمى اليها بعض قبائل اليمن ولا من صبأ بمعنى ارتد عن الدين ، وذلك أرجح الآراء فيما قيل عن أصـــول هذه الأسماء

وكانت اليهودية أعم انتشارا فى الجزيرة العربيـــة من المجوسية . لأن المجوسية بقيت محصورة فى عشـــائر من العرب من سكان بين البحرين ، ولكن اليهود كانوا يهاجرون بجملة قبائلهم من أرض كنعان كلما أصابهم القمع والتشريد من فاتح جديد ، وقد هاجر بنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل جلة واحدة الى يثرب على رواية الأغانى « بعد أن ظهرت الروم على بنى اسرائيل جميعا بالشام »

قال صاحب الأغانى : « لما قدم بنو النضير وقريظـــة وبهدل المدينة نزلوا الغـــابة فوجدوها وبيئة فكرهوها وبعثوا رائدا امروه ان يلتمس لهم نزلا سواها ، فخرج حتى اتى العالية ــ وهى بطحان ومهزور ــ واديان من حرة على تلاع أرض عذبة بها مياه عذبة تنبت حر الشجر فرجع اليهم فقـــال : قد وجدت لكم بلدا طيبـــا نزها الى حرة يصب فيها واديان على تلاع عذبة ومدرة طيبـــة فى متأخر الحرة فتحول القوم اليها فى منزلهم فنزل بنـــو النضير ومن معهم على مهزور وكانت لهم تلاعه وما تبقى من بعاث وسموات فكان ممن يسكن المدينة ، حتى نزلها الأوس والخزرج ، من قبائل بنى اسرائيـــل بنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو محمر وبنوزعورا وبنو زيد وبنو النضير

وبنو قريظة وبنو بهدل وبنو عوف وبنو القصيص فكان يسكن يثرب جماعة من ابناء اليهود فيهم الشرف والثروة والعز على سائر اليهود ... وكان هنـاك معهم من غير بنى اسرائيل بطون من العرب منهم بنو الحرمان حى من اليمن وبنو مرتد حى من بلى وبنو نيف حى من بلى أيضا وبنو معاوية حى من بنى سليم ثم من بنى الحارث بن بهنة وبنو الشطية حى من غسان »

ولم ينزل اليهود بغير المدن والقرى التى تحميهم فيها الآطام والابنية ، فنزلوا تيماء وفدك وخيبر واشـتغلوا بالتجارة والصناعة فى المدن وزرعوا الارض حولها للمرعى والاتجار بمحاصيلها ، واختاروا من التجارة أيسرها على غير المحاربين لانهم لم يقدروا على حراسة القوافل الكبيرة التى كانت تحمل أحيانا ـ كما جاء فى الطبرى ـ على اكثر من الفى جمل ، فاستغلوا المال وشاركوا فى قروض الربا والوساطات ولم ينسوا قط انهم غرباء فى بلد غـريب ، واجتنبوا المزاحمة فى التجارة فلم يكن لهم شأن بمكة دون سائر المدن لانها كانت مستقلة بالتجارة على طريقها فى ايدى قريش ، ولكن يقال فى روايات غير حاسمة ان بطونا من نمير وكنانة وكندة وبنى الحارث عرفت اليهودية من جـوارها لطريق المدن التى سكنها اليهود

وموضع النظر الكثير ما يقال عن دخول اليهودية الى اليمن وقيام دولة يهودية فيهـا بأمرة ذرعة المكنى بذى نواس ، فلا خلاف فى وجود اليهود بين عرب الجنوب من اهل اليمن ، ولكن الخلاف فى تاريخ دخول اليهودية تلك

البلاد ووسيلة دخولها ، لان المعهود فى بنى اسرائيل المتأخرين انهم كانوا لا يدعون احدا الى دخول دينهم لايثارهم انفسهم بوعد ابراهيم الخليل وحصر هذا الوعد فى ذرية اسحاق ابن يعقوب ، وقد حدث فى عهد هركانوس الاول المكابى انه أغار على الادوميين واكرههم على التهود فتهودوا وقامت منهم دولة هيرود حليفة الرومان ، وكان ذلك فى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد حين ضعف ايمان اليهود برجعة الدولة الدنيوية الى أرض الموعد ، وكان تدبيراحربياسياسيا دعت اليه الرغبة فى تأمين الطريق ومحالفة الرومان لدرء الخطر من ناحية فارس وحلفائها من جانب الصحراء . فاذا كان اليهود قد اكرهوا قبائل اليمن على التهود فمن أين لهم القوة التى تضارع قوة المكابيين فى الشام وفلسطين ؟ واذا كانوا قد هودوا تلك القبائل بالتبشير والاقناع فكيف قبلوا أن يشركوا معهم أناسا من المطرودين المحرومين فى وعد ابراهيم الخليل ؟

ان الاحتمال الراجح بين هذه النقائض ان اليهود وصلوا الى اليمن مهاجرين متفرقين ، وربما بدأت هذه الهجرة من أيام السبى البابلى لقرب بابل من طريق البحرين الى اليمن، فان لم تكن موغلة هذا الايغال فى القدم فقد يكون مبدؤها عند تشتيت اليهود فى أوائل القرن الثانى للميلاد ، ثم استمرت نحو ثلثمائة سنة الى أواخر الدولة الحميرية ، ثم وجد اليهود الحميريون انفسهم معرضين لخطر واحد امام تحالف الحبشة والروم ونصارى اليمن بنجران وغير نجران . فعقدوا الحلف المقابل لهذا الحلف بينهم وبين فارس وأعوانها من عرب الشواطىء الشرقية

ومن المعلوم ان الدولة الفارسية كانت تنازع الحبشة والروم فى ارض اليمن ، وكانت ترحب فى بلادها باليهود بعد انقلابهم على الدولة الرومانية واشتهارهم بمعاداتها وموالاة اعدائها ، وكانت ترحب بالنصارى الذين اضطهدهم الرومان الوثنيون ، ولم تزل ترحب بعد ذلك بالنصارى من اتباع المذاهب التى وقع عليها التحريم والتشريد بعد تنصر العواهل الشرقيين فى القسطنطينية ، ولم تقبل نصارى الحيرة الا لعلمها بمنافستهم لنصارى غسان من اتباع الرومان وانتمائهم الى مذهب النسطوريين

فالدولة الحميرية على عهد ذى نواس لم تكن دولة يهودية يقبلها اليهود ويدخلونها معهم فى عداد شعب الله المختار ، ولكنها كانت تحالف اليهود وتعمل على الاشتهار بمحالفتهم لاقناع فارس بولائها فى النزاع بينها وبين الحبشة والروم ، واشتهرت من ثمة بالتهود لانها ايدت اليهود وتنكرت للنصارى حذرا من معاونتهم ـ خفية او جهرة ـ لشركائهم فى العقيدة ابناء الحبشة ، ولو كان اليهود هم القوة التى قامت عليها دولة حمير لما صاروا الى القلة التى غمرتها الكثرة العربية فى القرن الخامس للميلاد

وايا كان تاريخ اليهودية فى اليمن وفى بلاد العرب عامة فانها لم تكن ذات رسالة دينية او روحية للصلاح والاصلاح ، ولم تكن يهودية معترفا بها بين بنى اسرائيل فى غير الجزيرة العربية ، وقد نقل الدكتور اسرائيل ولفنسون صاحب كتاب « تاريخ اليهود فى بلاد العرب » رايا فيهم ليهود دمشق وحلب رواه جريتز Graetz فقال : « انهم كانوا ينكرون وجود يهود فى الجزيرة العربية ويقولون ان الذين يعتبرون

أنفسهم من اليهود فى جهات خيبر ليسوا يهودا حقا اذ لم يحافظوا على الديانة الالهية التوحيدية ولم يخضعوا لقوانين التلمود خضوعا تاما ، وان العالم شير كان يعتقد أن اليهودية فى بلاد العرب كانت لها صبغة خاصة ، فقد كانت يهودية فى أساسها ولكنها غير خاضعة لكل ما يعرف بالقانون التلمودى »

ولا يمنع هذا ان يكون ليهود يثرب رأى فى أنفسهم غير رأى اخوانهم الدمشقيين والحلبيين ، فقد روى أوليرى O'leary فى كتابه عن بلاد العرب قبل محمد « أن بنى النضير وبنى قريظة كانوا يسمون انفسهم بالكاهنيين ويزعمون من ثم أنهم من نسل هارون ، وأما ياقوت فانه يقول أن يهود يثرب عرب تهودوا . وقد يخطر لنا ان بنى قينقاع كانوا من عرب الشمال الادوميين او اشباههم الذين هاجروا الى بلاد العرب بعد هدم الهيكل سنة سبعين او بعد تشريد اليهود على عهد هادريان سنة مائة واثنين وثلاثين »

على ان الصبغة اليهودية التى بقيت مع يهود يثرب فى معيشتهم وصناعاتهم ومعاملاتهم ومعرفة بعضهم بالكتب العبرية القديمة ولياذهم بالأطام ـ ادل عليهم من تقديرات المؤرخين على الفرض والتخمين ، وما اشبه قينقاع ان ترجع فى اصلها الى كوهنكا ! وما ابعد اسم النضير من اسماء العرب الاقدمين !.. لقد قيل انهم بطن من بطون جذام ابناء عم اللخميين ، فهل كان فى جذام من يعرف العبرية كما عرفها يهود يثرب ؟ وهل كان فى وسعهم ان ينشئوا المدرسة العبرية التى ظلت الى عصر الدعوة المحمدية يسميها العرب

بيت المدارس ويسميها اليهود (بيت هام مدراس) ؟

وقد كان يحسب لهؤلاء اليهود أثر فى مقدمات الدعوة الدينية ، أو مقدمات النهضة القومية الانسانية بعبارة اخرى لو انهم أفادوا العرب من حولهم دروسا فى التفكير والاخلاق تكشف لهم عن سخف الجاهلية وتهيىء ضمائرهم لما هو أصح منها واقرب الى التقدم والهداية . هذا أو تكون حياتهم بين العرب قدوة صالحة يقتدون بها فى معاملاتهم وعلاقة بعضهم ببعض فى السلم والحرب والمحالفة والمخالفة

ولكنهم لم يصنعوا هذا ولا ذاك وصنعوا فى أكثر الاحيان نقيض هذا وذاك . لانهم لم يكترثوا لامر المتهودين من قبائل العرب الا لينتفعوا بولائهم وحراستهم لتجارتهم فى الطريق . فلم يكن بين الجاهليين المتهودين والجاهليين الوثنيين فرق فى العادات والاخلاق الا ان يكون فرق الشجاعة والرجولة فى جانب الوثنيين يمتازون به على الذين تعودوا الليـاذ بالآطام والتعلق فى حربهم وسلمهم بذرائع المساومة والنفاق

وقد كان يهود يثرب قدوة سيئة فى كل علاقة بينهم وبين العرب او بينهم وبين انفسهم فى جوار المدينة ، فقد كانت سياستهم مع قبائل العرب قائمة على الايقاع بينها واثارة الاحقاد فى المتخاصمين منهم كلما جنحوا الى النسيان وتعاهدوا على الصلح والامان . ولزم اليهود أنفسهم داؤهم القديم من الشقاق والمشاكسة حيثما اجتمعوا فى مكان واحد ، فدبت الخصومة بين بنى قينقاع من جانب وبين بنى النضير وبنى قريظة من الجانب الآخر ، ولم يتفق بنو النضير وبنو

قريظة على شيء غير حسدهم لبنى قينقاع وعملهم على الوقيعة بين قبائل الاوس والخزرج وهى كثيرة فى جوار المدينة . وقد كانوا ينفسون على بنى قينقاع انهم كانوا يقيمون فى قصورهم داخل المدينة ولا مأوى لبنى قريظة غير ضاحية المشرق ولا لبنى النضير غير ضاحية المغرب . فلما نشبت الحرب بين الاوس والخزرج تفرق اليهود بين الحزبين فكان بنو قينقاع مع الخزرج وكان بنو النضير وبنو قريظة مع الاوس ، ولم يتحرك احد من النضيريين والقرظيين لنصرة بنى قينقاع حين اجلاهم المسلمون عن المدينة ، ولاتحرك أحدمن القرظيين لنصرة النضيريين حين قضى عليهم بالجلاء لغدرهم بالنبى عليه السلام وصعود أحدهم ـ عمر بن جحاش ـ على جدار يجلس النبى تحته ليلقى عليه بصخرة من اعلاه ... وانما وصفتهم الآية بوصفهم هذا حيث جاء فى القرآن الكريم من سورة الحشر انهم « لا يقاتلونكم جميعا الا فى قرى محصنة او من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون »

وليس فى خليقة من هذه الخلائق قدوة صالحة تعلم الجاهليين ما يحسن بهم أن يتعلموه ويهتدوا به الى طريق مستقيم

ولقد عاش يهود يثرب ما عاشوا فى جزيرة العرب ولم يؤثر عنهم قط سعى فى سبيل مطلب من المطالب العامة والخاصة غير الاستكثار من الربح المشروع وغير المشروع بكل ما استطاعوا من حول وحيلة . فلما جهر النبى بدعوته خذلوه من مبدأ الامر وأوفدوا وفودهم الى كفار

قريش ، يعرضون عليهم المؤازرة والمحالفة واتخذوا خطتهم التى ثابروا عليها بعد ذلك ولم يعدلوا عنها الى حين اجلائهم عن حدود الجزيرة ، وخلاصة هذه الخطة تثبيت الوثنية الجاهلية وايثارها على دعوة التوحيد والتنزيه التى جاءت بها رسالة الاسلام وشملت بها تعظيم العقائد الكتابية وعقائد التوحيد جملة منذ عهد ابراهيم الخليل. وكان فى سعيهم للتأليب على هذه الدعوة بعض الاناة والحيطة قبل الهجرة النبوية الى المدينة ، لأنهم كانوا يتراوحون فى مساعيهم بين الحذر من عاقبة الدعوة وبين الأمل فى القضاء على تجارة قريش وانفرادهم بعد قريش بتجارة الحجاز كله من اليمن الى مكة الى المدينة الى الشام ، فلما هاجر المسلمون القرشيون الى المدينة واقاموا لهم سوقا بجوار سوق اليهود أرادوا أن يفسدوا كل ما صنعه الاسلام حتى الصلح بين الأوس والخزرج والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، واستيأسوا فى الكيد والدس ولم يحرصوا على شىء غير استبقاء الروح والتأليب على كل اصلاح وكل مصالحة فى غير هذا السبيل

فاذا كان ليهود يثرب أثر فى مقدمات الدعوة المحمدية فهو أثر أسوأ من أثر الجاهليين فى المقاومة والعناد ، واذا استفاد الباحث من تاريخ هؤلاء القوم توضيحا لتلك المقدمات فانما تأتى هذه الفائدة من جانب آخر لا فضل لهم فيه ، فانهم كانوا تصحيحا عمليا لأخطاء المستشرقين الذين أنكروا وحدة اللغة العربية قبل الاسلام فى عصر المعلقات والقصائد الجاهلية ، ولقد كانت وحدة اللغة من مقدمات الدعوة الاسلامية التى خاطبت العرب جميعا

بلسان يعرفونه من قبل عصر الاسلام ، فجاء بعض المستشرقين بوهم من اوهامهم يشككون فى وحدة هذه اللغة وينكرون اتفاق الجزيرة على التخاطب بلسان القرشيين والمكيين ، وزعموا ان وحدة هذه اللغة ممتنعة لاختلاف لسان العدنانيين والقحطانيين

فاليهود فى يثرب اصدق جواب على هذه الاوهام لانهم غرباء عن الجزيرة العربية دخلوها فى القرن الاول او الثانى للميلاد ، ولا يجوز الشك فى ذلك ولا القول بأنهم عرب تهودوا كما قال بعض المؤرخين على غير علم ولا روية فيما يصح ان يقال ، فان القول بذلك يستلزم منا ان نفرض ان العرب الاميين تطوعوا للتحول الى اليهودية ثم تعلموا العبرية وتفقهوا فى كتب التوراة لينقطعوا عن اسلافهم وينضووا الى قوم مخذولين فى بلادهم لا يسلمون لأحد من الأمم بأنه اهل للدخول معهم فى عداد شعب الله المختار ، فهذا من اغرب الفروض التى لا تثبت بغير دليل قاطع فضلا عن الثبوت بغير دليل ، وليس فى هجرة اليهود من فلسطين الى بلاد العرب غرابة او مناقضة لوقائع التاريخ بعد تشتيتهم فى القرن الاول او الثانى للميلاد ، وقد كان مقامهم على الطريق بين تيماء والمدينة للتجارة والزراعة والاشتغال بغير صناعات القبائل العربية اشبه شيء أن يكون على تلك الطريق خاصة دون الطريق الاخرى التى يحميها النبط وقريش ولا يستطيع اليهود المهاجرون ان يقتحموها على اصحابها وهم مشردون مستضعفون ، مع العداء بينهم وبين النبطيين وتعصب النبطيين على اسرائيل دينا ولغة وميلا فى السياسة والولاء

وعلى جميع هذه الفروض التى لا تقبل الشك تبقى هناك الحقيقة التى لا تختلف مع اختلاف القول فى أصول يثرب وخيبر وفدك وتيماء ووادى القرى على الاجمال

فهل هؤلاء عرب يكتبون ؟

لو كانوا كذلك لقد كانوا خلقاء ان يحفظوا فى صحفهم كلاما عربيا مما قبل الاسلام بثلاثة قرون يخالف العربية الموحدة فى عصر الاسلام ، انصح أن العربية لم تكن موحدة فى ايام شعراء المعلقات ، وبعض هؤلاء الشعراء لم يسبقوا عصر الاسلام باكثر من مائة عام

وكانوا خلقاء أن يحفظوا بالكتابة العبرية لهجة غير اللهجة الموحدة التى يشك المستشرقون فى سبقها للاسلام الى عصر أولئك الشعراء ، أو كانوا خلقاء أن نعلم من كتابتهم شيئا يؤيد ذلك الشك نوعا من التأييد

أما اذا كانوا على القول الراجح — بل القاطع — يهودا دخلوا الجزيرة بلسان غير لسانها ، وتكلموا الآرامية أو الادومية أو العبرية ثم تعلموا اللغة العربية الحجازية فهذا التوحيد الذى تم بين اللغة الحجازية وبين الآرامية أو الادومية أو العبرية ليس بالمستغرب ان يتم بين لهجة العرب فى الجنوب ولهجة العرب فى الحجاز وسائر أطراف الجزيرة ، فقد اقام عرب اليمن فى الجزيرة واتصلوا بالحجاز زمنا أطول جدا من مقام اليهود المهاجرين منذ القرن الأول أو الثانى للميلاد

ولم يصل الينا شىء من لغة اليهود الذين أقاموا بجنوب الجزيرة أو اليهود الذين تحالف معهم ذو تواس فى نجران،

ولكن اليهود الذين وفدوا الى الحجاز بعد البعثة النبوية كان منهم كتاب ومؤرخون مطلعـــون على تواريخ حمير وتواريخ أسلافهم العبرانيين ، وكان منهم كعب بن ماتع الحميرى الملقب بكعب الأحبار ، وكان منهم وهب بن منبه الصنعانى الذى قال ابن خلكان انه رأى كتابا له عن ملوك حمير واخبارهم واشعارهم فى مجلد واحد ووصف هذا الكتاب بأنه مفيد . وقد كان كعب ووهب من المغربين فى طلب النوادر فلم يذكرا لنا زمنا شهداه ، أوشهده آباؤهم وأجدادهم كانت فيـه لغـــة قريش مجهولة فى اليمن وما جاورها . وادنى من ذلك الى عصر البعثة قدوم الوفود من اليمن الى الحجاز وذهاب الولاة من الحجاز الى اليمن باذن النبى عليه السلام ، ومنهم معاذ بن أبى جبل وعلى ابن ابى طالب ومن كان يصحبهما فى عمل الولاية والتعليم ، فلم نسمع ان وفود اليمن على النبى جهلوا ما سمعوه أو نطقوا بكلام لا يفهمه اهل الحجاز ، وهؤلاء قد لقنوا لغاتهم من آبائهم فلا يفوتهم ما اختلف من كلامهم اذا كان ثمـة اختلاف

واقدم من البعثة المحمدية رحلة الصيف ورحلة الشتاء، وليس فى أخبار هذه الرحلات الماع الى تفاهم قريش مع اهل اليمن بلغة غير اللغة القرشية فى الجيل السابق للبعثة والجيل الذى تقدمه ، ومن البعيد جدا أن يغيب عن ذاكرة العربى حديث جيلين قبل جيله وقد كانت اخبـــارهم ورواياتهم وانســـابهم وامثالهم كلها قائمة على الحفظ وتسلسل الرواية والاسناد من جيل الى جيل ، فاذا كانت لغة الحجاز شائعة عامة على مدى الذاكرة فى عصر البعثة

المحمدية فلا أقل من ثلاثة أجيال تقدر لهذا الشيوع وهذا للتعميم ، وترجع بنا هذه الأجيال الى أقدم الأوقات التى أسند اليها نظم المعلقات فلا نستغرب نظمها باللغة التى يفهمها العرب من الجنوب الى الشمال

ولقد سمع النبى عليه السلام قصيدة كعب بن زهير ، وقد نظمها ولا شك بلغة ابيه زهير بن أبى سلمى ، وكان زهير من أسرة شاعرة مسبوقا الى النظم بتلك اللغـــة ، ولا يعقل أن يكون التغير فى لغة النظم قد طرأ عليهم فجأة فى مدى سنوات معدودات ، فاذا بلغنا بالمعلقات عصر هرم ابن سنان ــ ممدوح زهير ــ وما تقدمه بقليل فليس من شعراء المعلقات من هو أقدم من ذلك بزمن طويل يمتنع فيه التوافق على النظم الواحد واللغة الواحدة ، ولا بد ان نذكر هنا أن أوزان العروض لا تخلق بين يوم وليلة ، وأن وزن قصيدة كعب ووزن قصيدة أبيه قد وجدا قبل عصر الشاعرين ونظمت فيهما قصائد جيل أو جيلين على الاقل قبل ذلك التاريخ ، ولو أن هذه الأوزان وسعت شعرا غير شعر اللغة الحجازية لما غاب خبره ولو غاب لفظه ومعناه

ومن عسف القول ولا ريب أن نجزم بامتنـــاع هجرة اليمانية الى ما وراء حدود اليمن فى الجزيرة العربية ، فاذا جاز أن تهاجر منهم قبيلة واحدة فحكم القبيلة فى مسألة اللغة كحكم القبائل العشر أو العشرين . ولمن شاء أن ينكر نسبة البكريين أو التغلبيين أو الغساسنة الى اليمن مستندا الى الدليل أو غير مستند الى دليل على الاطلاق ، ولكنه لا يستطيع أن ينكر نسبتهم الى اليمن وينكر نسبة اللغة العدنانية اليهم فى وقت واحد ، فانه بذلك ينكر نسبتهم

الى كل أصل معروف فى الجزيرة العربيـــة ولا يأتى لهم بأصل غير تلك الاصول

وان من ينكر انتقال قوم من اليمن الى ما وراءها لينكر أمرا غير قابل للانكار فى الجزيرة العربية التى لم يثبت فيها تاريخ اثبت من تواريخ الرحلات على تباعد الأزمنة وتبدل العوارض الجوية وطوارىء الخصب والجدب والغلبة والهزيمة. وما من باحث ذى روية يعتسف البت بذلك الانكار ثم يجزم بحصر اليمانية فى حدودهم منذ أحاطت بهم تلك الحدود . فمن العسف أن يقال ان اليمانية لم تبرح اليمن قط فى العصور التى سبقت البعثة المحمدية ، وليس من العسف فى شيء ان يقال انها برحتها على حسب الطوارىء وعوامل الجو والتاريخ ، ولا داعية بعـــد ذلك لاستغراب التوافق بين اليمانية وابناء الحجاز وتهامة وسائر الجزيرة فى لهجة من اللهجات . فما دمنا نقدر بحكم البداهة ان اليمانية وجدوا فى الجزيرة العربية وراء حدودهم وتكلموا كما يتكلم المقيمون فى جوارهم فقد زالت المشكلة ولم تكن هنالك فى الحقيقة مشكلة تزال

وليس أكثر من العسف الذى يلجأ اليه منكرو الوحدة فى لغة الجزيرة قبل البعثة المحمدية بجيلين أو ثلاثة أجيال، وان اعتساف التاريخ هنا لاهون فى رأينا من اعتســـاف الفروض الادبية التى لا تقبل التصديق ، فما من قارىء للأدب يسيغ القول بوجود طائفة من الرواة يلفقون أشعار الجاهلية كما وصلت الينا ويفلحون فى ذلك التلفيق . اذ معنى ذلك « أولا » ان هؤلاء الرواة قد بلغوا من الشاعرية ذروتها التى بلغها امرؤ القيس والنابغـــة وطرفة وعنترة

وزهير وغيرهم من فحول الشعر فى الجاهلية ، ومعنى ذلك « ثانيا » انهم مقتدرون على توزيع الاساليب على حسب الأمزجة والأعمار والملكات الأدبية . فينظمون بمزاج الشاب طرفة ومزاج الشيخ زهير ومزاج العربيد الغزل امرىء القيس ومزاج الفارس المقدام عنترة بن شداد ، ويتحرون لكل واحد « مناسباته » النفسية والتاريخية ويجمعون له القصائد على نمط واحد فى الديوان الذى ينسب اليه ، ومعنى ذلك « ثالثا » أن هذه القدرة توجد عند الرواة ولا توجد عند أحد من الشعراء ثم يفرط الرواة فى سمعتها وهم على هذا العلم بقيمة الشعر الاصيل ، وما من ناقد يسيغ هذا الفرض ببرهان فضلا عن اساغته بغير برهان ولغير سبب الا ان يتوهم ويعزز التوهم بالتخمين ، وان تصديق النقائض الجاهلية جميعا لأهون من تصديق هذه النقيضة التى يضيق بها الحس ويضيق بها الخيال

وشتان مع هذا النقائض التى يستدعيها العقل ويبحث عنها اذا تفقدها فلم يجدها ، والنقائض التى يرفضها العقل ولا موجب لها من الواقع ولا من الفكر السليم

فهذه النقائض التى تحاول ان تشككنا فى وحدة اللغة العربية قبل الاسلام يرفضها العقل لان قبولها يكلفه شططا ولا يوجبه بحث جدير بالاقناع

فمما يتكلفه العقل اذا تقبلها ان يجزم — كما تقدم — بانقطاع عرب اليمن عن داخل الجزيرة كل الانقطاع ، وان يجزم ببقاء لغة قحطانية تناظر اللغة القرشية فى الجيلين السابقين للبعثة المحمدية غير معتمد على أثر فى ذاكرة الاحياء ولا فى ورق محفوظ ، وان يلغى كل ما توارثه

٣ — مطلع النور

العرب عن انسابهم واسـلافهم وهم امة تقوم مفاخرها وعلاقاتها على الانساب وبقايا الاسلاف ، وان يفترض وجود الرواة المتآمرين على الانتحال بتلك الملكة التى تنظم أبلغ الشعر وتنوعه على حسب الامزجة والدواعى النفسية والأعمار ، وان يفهم أن القول المنتحل مقصور على الاسانيد العربية مبطل لمراجعها دون غيرها من مراجع الامم التى صح عندها الكثير مما يخالطه الانتحال والكذب الصريح

ومن النقائض التى يستدعيها العقل ويستلزمها ويتخذ منهـا حجة لثبوت الواقع فى جملته أن يحدث الاختلاف فى الرواية وان يتعذر فيها الاجماع بين الرواة ، فان العقل لا يصـدق الأقاويـل التى يتفرق رواتهـا ويطول العهـد عليهـا ويعول أصـحابها على الذاكرة والاسناد ثم تأتى متفقة فى الجملة والتفصيل ولا تتعرض مع الزمن وعوامل الاهواء للاضطراب والحذف والاضافة عن قصد او بفعل النسيان والاهمال . فاختلاف الرواة اذن سبب من اسباب التصديق ، واتفاقهم يدعو الى الشك او التكذيب

وقد نسمع النقيضين فى هذه الحالة فنرفضهما ولا نرفض لبـاب الخبر ومغـزاه . فقـد سمعنا ان عمـرو ابن كلثوم او الحارث بن حلزة القى قصيدته فى وقفة واحدة ، وسمعنا ان زهير بن أبى سلمى كان ينظم قصيدته فى الحول وتسمى قصائده من أجل ذلك بالحوليات ، وقد نسقط هذه المبالغة كما نسقط تلك ولا يلزم من ذلك ان نسقط الشعر الذى بولغ فى وقت نظمه بين أقصى الطرفين

وربما وقفنا على روايتين نصدقهما الآن عند النظر الى الحقائق العصرية ونعلم ان تلفيقهما فى الزمن الماضى جـد

عسير ولو اراده الملفقون ، فمما يروى عن امرىء القيس انه تعجب من اعراض النساء عنه مع وسامته ومكانته . وسأل احدى النساء فى ذلك فقالت له : نعم ، ولكن لك عرقا كانه عرق كلب ، ثم نقرأ أخبار وفاته فنعلم منها أنه أصيب قبل موته بقروح تساقط منها جلده وسمى الحلة التى كان يلبسها من أجل ذلك بذات القروح ، ومؤدى الروايتين معا أن الشاعر كان على استعداد للمرض الجلدى لفساد رائحة العرق الذى يفرزه ، وانه لم يزل حتى استشرى به الفساد فى رحلته القصية فظهر فى تلك القروح ، ويقترن ذلك بنوادر مع النساء المعرضات عنه وغلبة الشاعر علقمة عليه فى عينى امرأته ، فلا يسهل على الناظر فى جميع هذه الاخبار ان ينسب تلفيقها عمدا الى راوية واحد ، ولا يسهل عليه ان يتلقاها متفرقة ثم يجردها من الدلالة التى تربط بينها على غير علم من الرواة المتفرقين

وربما كذب الكثير من اخبار طرفة ولم تكذب قصيدته التى تنم فى جملتها على خلائقه التى تنوب عن تلك الاخبار وتغنينا عن محاسبة الرواة على التصديق أو على التكذيب

وهذه القرائن الادبية هى التى يغفل عنها المستشرقون ولا يفطنون لها لانهم ينظرون فى النصوص والاسناد ولا ينظرون فى الادب ولا فى روح الكلام ومضامين التعبير ، ومنهم من لايعرف أدب بلاده ولا يحسن الحكم عليه وهو أدب اللغة التى تلقنها فى حجر أمه ، فليست معرفته باللغة العربية كافلة له أن يحكم على آدابها وأساليبها ومضامين الكلام على تعدد الأمزجة والأذواق ، ومنهم علامة تصدى

لوضع المعجمات الكبرى فى اللغة العربية فكتب فى مادة «اخذ» انها تأتى بمعنى نام لقوله تعالى « لاتأخذه سنة ولانوم » ... ومنهم من يترجم « أبا بكر » بأبى العذراء لأنه كان والد الزوجة التى بنى بها النبى عليه السلام وهى عذراء ، ومنهم من يترجم الصعيد بمصر الميمونة أو مصر السعيدة Egypt Felix قياسا على اليمن التى تسمى العربية السعيدة Arabia Felix ومنهم من يقول ان التضحية تدل على عبادة الشمس لانها من الضحى ... وما هى فى وضعها الا كالتغدية من الغداة والتعشية من العشاء والسحور من السحر الى غير ذلك من توقيته الوجبات والذبائح بميقاتها من الليل والنهار ... ومنهم من يحسب ان القصيدة من القصد فيترجمها بالكلام الذى يراد معناه !

وقد تصدت منهم لهذا البحث الذى نحن فيه عن اللغة قبل نزول القرآن طائفة تقتحم هذه المباحث وهى اجهل بالاتها من عامة الاميين . فالدكتور سنكلر ثسديل Thusdale صاحب كتاب مصادر الاسلام يروى شبهات الناقدين للقرآن الكريم ، ومنها هذه الابيات :

دنت الساعة وانشق القمر
عن غزال صاد قلبى ونفر
احور قد حرت فى اوصافه
ناعس الطرف بعينيه حور
سر يوم العيد فى زينته
فرمانى فتعاطى فعقر

بســـهام من لحاظ فاتك
فتركنى كهشـــيم المحتظر

وينتخذ منها قرينة على اقتباس القرآن بعض الآيات من أشعار الجاهليين

ويضيف الدكتور العلامة الى هذه الابيات أبياتا اخرى كقول القائل :

أقبل والعشـــاق من خلفه
كانهم من حدب ينسلون

وجاء يوم العيد فى زينـــة
لمثل ذا فليعمل العـــاملون

قال الدكتور : « ومن الحكايات المتداولة فى عصرنا الحاضر انه لما كانت فاطمة بنت محمد تتلو هذه الآية وهى اقتربت الساعة وانشق القمر ــ سمعتها بنت امرىء القيس وقالت لها إن هذه القطعة من قصائد أبى اخذها والدك وادعى ان الله انزلها عليه ، ومع انه يمكن ان تكون هذه الرواية كاذبة لأن امرا القيس توفى سنة ٥٤٠ م ولم يولد محمد الا فى سنة الفيل أي سنة ٥٧٠ م فلا ينكر ان هذه الابيات المذكورة واردة فى سورة القمر وفى سورة الضحى وفى سورة الانبياء وفى سورة الصافات ، وغاية الأمر انه يوجد اختلاف طفيف فى اللفظ وليس فى المعنى ، فورد فى القرآن اقتربت وفى القصيدة دنت ... ومن البين الواضح انه يوجد مناسبة ومشابهة بين هـــذه الابيات وبين تلك الآيات الواردة فى القرآن . فاذا ثبت ان هذه الابيـــات هى لامرىء القيس حقيقة فحينئذ يصعب على المسلم توضيح كيفية ورودها فى القرآن لانه يتعذر على الانسان ان ابيات شاعر وثنى

كانت مسطورة فى اللوح المحفوظ قبل انشاء العالم »

ثم قال الدكتور يطالب العلماء المسلمين مع المعترضين والمشتبهين بأن يقيموا الدليل على أن هذه الآيات مأخوذة ومقتبسة من القرآن وانها ليست من نظم امرىء القيس الذى توفى قبل مولد محمد بثلاثين سنة « ولكن يصعب علينا أن نصدق بأن ناظم هذه القصائد بلغ الى هذا الحد من التهتك والاستخفاف والجراة فى اى زمن من الازمان بعد تأسيس مملكة الاسلام التى كانت متسعةالاطراف والاكناف حتى يقتبس آيات من القرآن ويستعملها فى مثل هذا الموضوع »

ثم يختم الدكتور كلامه فى هذه الشبهات مصطنعا الحذر والحيطة لئلا يثبت نظم هذه الابيات بعد الاسلام فتسقط الشبهة كلها ، فيقول ان هذه الابيات ليست كل ما يعترض به المعترضون ، لان ما تقدم من الاسانيد كاف عندهم لتأييد هذه القضية (١)

وأيسر ما يبدو من جهل هؤلاء الخابطين فى امر اللغة العربية قبل الاسلام وعلاقتها بلغة القرآن الكريم — انهم يحسبون أن علماء المسلمين يلقون فى بحث تلك الأبيات وصبا واصبا لينكروا نسبتها الىالجاهلية ولا يلهمهمالذوق الأدبى ان نظرة واحدة كافية لليقين بادحاض نسبتها الى امرىء القيس أو غيره من شعراء الجاهلية

وهذه النظرة الكافية هى التى تعيى الناقدين المستشرقين وهى أصل وثيق من أصول النقديعول عليه

(١) من صفحة ٢٥ الى صفحة ٢٩ من الترجمة العربية

الناظر فى الأدب كل التعويل ، ولا يقدح فيـــه أن يتسع للجدل وأن يجوز عليه الخطأ فى القليل دون الكثير

كذلك يتسع سبيل الجدل فى انكار خبرة الخبير بكتابة الخطوط ، وكذلك يجوز الخطأ فى محاكاة كلمة أو بضع كلمات ولا يجوز فى السطور والصفحات

فاذا نظر خبير الخطوط فى صفحة من الصفحات فقد تغنيـــه نظرة فى الحكم عليها بالصـــحة او التزييف ، وربما جاز عليه أمر الكلمة والكلمات اذا لم يكن أمامه غير هذه الكلمة او هذه الكلمات للمقابلة والمضـــاهاة ، ولكنه اذا حصل على تلك الكلمة مكتوبة عشر مرات أو عشرين مرة لم يكن من اليسير أن ينخدع فيها كما ينخدع فى الكلمة المفردة بغير تكرار ، وعلى هـذا المنوال يبدو الصحيح والزيف فى الشعر الأصيل والشعر المدخول ، وقـــد يجوز التزوير فى الشـــطرة الواحـدة أو البيت الواحد اذا امتنعت المقـــارنة بينه وبين أمثاله من تلفيق صاحب التزوير ، ولكنه لا يجوز اذا كرر المزور الابيات ومثلت للنـــاظر النـاقد طريقته فى تزوير هذه الأبيات المتفرقات ..

تزوير الادب الجاهلى مستحيل

أما المستحيل ، أو شبيه المستحيل ، فهو تزوير أدب كامل ينسب الى الجاهلية ويصطبغ فى جملتـــه بالصبغة التى تشمله على تباين القـائلين والشعراء ، فاذا جمعنا

الشعر المنسوب الى الجاهلية كله فى ديوان واحد فمن المستحيل او شبيه المستحيل ان نجمع ديوانا يماثله من كلام العباسيين او كلام الامويين المتأخرين ، واذا قل الفارق بين الشعر المخضرم والشعر الاموى الاول والشعر الجاهلى فتلك آية على صحة العلامات التى تميز الشعر الجاهلى وعلى صحة القرابة بينه وبين الشعر الذى لم يفترق عنه افتراقا بعيدا بزمانه وثقافة قائليه وبيئاتهم فى المعيشة ومناسبات التعبير . فلا يتشابه الشعر الجاهلى والشعر المخضرم ، ان لم يكن بينهما ميزان مشترك ، مع انتمائه الى عشرات الشعراء الجاهليين والمخضرمين

ان الملامح الشخصية التى تميز بين الفرزدق والاخطل وجرير لم يكن لها ثبوت اوضح واقوى من ثبوت الفوارق التى تميز بين امرىء القيس وعمرو بن كلثوم وزهير ، فمن يرى ان خلق دواوين الفرزدق والاخطل وجرير فى وسع راوية واحد فقد سهل عليه ان ينسب شعر الجاهليين جميعا الى راوية او رواة ، ولكنه يذهب فى الحالين مذهبا لا سند له ولا سابقة من مثله فى آداب الأمم ولا نصيب له من الذوق الادبى غير النبو والاستغراب

وربما كان « سنكلر تسديل » الذى مثلنا به لجهل المستشرقين باللغة والذوق الأدبى مثلا صارخا كما يقال فى التعبير الحديث ، ولكن المثل الصارخ هو الذى يبرز الحقيقة مستعصية على اللبس والمكابرة ويحيط بما دونه من الأمثلة التى تتردد بين الشك واليقين ، وقد اتينا على طائفة منها لا تتخلف عن المثل الصارخ بشوط بعيد

سوء فهم وسوء نية

والمعهود فى جمـــاعة المستشرقين أن الـكثيرين منهم يقرنون سوء الفهم بسوء النية لانهم يخدمون ســـياسة المستعمرين أو سياسة المبشرين المحترفين أو ينظرون فى بحوثهم نظرة الغربى الذى ينظر الى الشرقى نظرة المتعالى عليه فى حاضره وماضيه . غير انهم ماعـدا القليل منهم محدودون سطحيون يحومون حول المســائل الحسية ولا يتوسعون فى النظر أو يتعمقون وراء الظواهر التى يلمسها شاهد الحس لمسا فلا تخرج عنده من حدود ما يثبته أو ينفيه من وقائع العيان والسماع

فغايةمايقصدون اليه من امر اللغةانهم يلتمسون الاسناد المعتمدة عند اهلها فيأخذونها بالشـــك والتجريح ، وانهم يهدمون الدعائم القائمةليستجيزوا بعد ذلك كل ادعاءيدعونه وكل انكار ينكرونه من اصول اليقين والاطمئنان ، وتشكيكهم فى اسانيد اللغة من هذا القبيل لا يعدوه الى مطلب بعيد من مطالب الاحاطة والاستيعاب ، فهو كالمنازع الذى ينكر على صاحب الدار وثيقته ولا يعدوها الى أركان الدار وما فى الدار ، وتقديرهم لمسالة الشك فى وحدة اللغة اقل جدا من قدرها الصحيح فى مقدمات الدعوة المحمدية ، اذ هى اصلح هذه المقدمات للدلالة على مابعدها ، وأصـــدق فى التمهيدلنتائجها من مقدمات السياسة والاحداث الاجتماعية، لانها المقدمة الوحيدة التى تمشى فى طريق الدعوة المحمدية مساوقة لها مترقبة لاوانها ، ولا تـكون الدعوة المحمدية

بالنسبة اليها كأنها رد الفعل الذى يقاوم ماقبله ويجرى معه مجرى النقيض من النقيض

الفخر باللسان العربى

ان الشعور بالعربية والفخر باللسان العربى مقدمة لابد منها للدعوة التى تواجه العرب بآية البلاغة فى القرآن الكريم ، وتروعهم بالمعجزة التى يحكونها ان استطاعوا أو يحسبونها من قدرة الله

مثل هذا التحدى بالبلاغة لا يحدث فى أمة لم تتأصل فيها مفخرة اللسان العربى والوحدة العربية جيلين أو ثلاثة أجيال ، ولا بد — مع ذلك — أن تكون فتحا قريبا أو شعورا فتيا لم يتطاول عليه العهد مئات السنين ولم تذهب روعته بالألفة وفتور النسيان

ووحدة اللغة القرشية أو الحجازية لاتصبح من مفاخر العرب جميعا كرامة لقريش أو لارض الحجاز ، ولكنها خليقة أن تسرى الى نفوس العرب من حيث يشعرون بالعروبة الموحدة عالية الرأس غير مستكينة لسلطان من « العجم » على الخصوص

والكعبة هى الجوار الوحيد الذى يشعر عنده العرب هذا الشعور

فهم فى الشام رعايا دولة الروم ، وهم فى الحيرة رعايا دولة الفرس ، وهم فى اليمن اتباع للحبشة أو لفارس أو رعايا لسلطان يدينهم بالمذلة كما يدينهم الملوك الغرباء

ولكنهم عند بيت الله فى حرم الله يقدسونه جميعا

لأنه لهم جميعا يضمهم اليه كما يضم أوثانهم واصنامهم وأربابهم الذين يلوذون ويأوون اليه ، فكلهم من معبود او عابد فى حمى من الكعبة لانهم فى بيت الله

وشعورهم هنا بأنهم « عرب » لم يماثله شعور قط فى انحاء الجزيرة العربية ، وقد أوشك أن يشمل شعب اليمن وجمهرة اقوامه على الرغم من سادته وحكامه ، فما كان هؤلاء الحكام لينفسوا على الكعبة مكانها ويقيموا لها نظيرا فى أرضهم لو كان شعب اليمن منصرفا عنها غير معتز بها كاعتزاز البادية والصحراء

وحدة الكعبة

وقد وافق ذلك زوال عرش الحيرة وزوال عرش حمير واستكانة الغساسنة فى الشام تارة للروم وتارة للفرس بلا ولاء لهؤلاء ولا لهؤلاء ، ولا بقية من الفخر لهم غير انهم عرب وليسوا من هؤلاء ولا هؤلاء

وان ابقاء الاسلام على مكانة الكعبة لدليل على هذه المكانة ودليل على حكمة الاسلام فى الاحتفاظ بها للعالم الاسلامى فى متسعه العميم بعد عالمه الاول فى الجزيرة العربية

ونكاد نقول ان العرب اقبلت على الاسلام أفواجا حين صارت الكعبة الى يديه وأصبحت عاصمة العروبة عاصمة للدين الجديد

ولو لم تكن للعرب وحدة معروفة بينهم قبل البعثة الاسلامية لما اعتزوا بالبيت الجامع لهم هذا الاعتزاز ،

وما وحدة اقوام متقاتلين متنازعين مأخوذين بعصبية الأجداد والعشائر ان لم تكن وحدة اللغة ووحدة الفخر بلسان مبين يتيهون به على « العجم » اجمعين ؟

قال سترابون انه وجد الاقوام فى بلاد العجم تتفاهم بلغة واحدة ، وهى بلاد تعاقبت عليها سلالات الآريين والطورانيين والساميين ، ويقال فى روايات شتى ان الجاميين وصلوا اليها فى زمن قديم كما كانوا يصلون اليها ويتجمعون فيها بعد الاسلام بعدة قرون ، ولم تكن عوامل الوحدة اللغوية بينهم أقوى من عواملها فى جزيرة العرب ، ولم يمض عليهم من الزمن ممتزجين متقاربين اكثر مما مضى على القبائل العربية التى من عادتها الترحل والانتقال من مرعى الى مرعى ومن جوار الى جوار

وفى زماننا هذا — من القرن التاسع عشر الى القرن العشرين — لاترى احدا يستغرب تخاطب القوم فى جزائر البريطان بلغة واحدة ومنهم الأيرلنديون والايقوسيون والغاليون ، وفى كل امة من هذه الامم خطباء مفوهون وشعراء مشهورون يحسنون الانجليزية منظومة ومنثورة وفى مجامع الخطابة والبيان . ولا نرى احدا يستغرب ذلك فى بلاد الاسبان ومنهم القشتاليون والباسكيون . ولا نرى فى مصر هنا من يستغرب البيان العربى الفصيح اذا نسب الى فئة من ابناء النوبة وهم يتفاهمون فى الاقليم النوبى برطانة لايفهمها سائر المصريين ، فلا موجب لانكار النظم والكلام بلغة واحدة فى جزيرة العرب قبل البعثة المحمدية بمائتى سنة او اكثر من ذلك مع عجز المنكرين ان

يأتوا بشاهد من اللغة الاخرى التى يفترضونها وينكرون توحيد اللغة من اجلها ، ومع توافر الاسباب الموجدة فى جزيرة العرب على نحو لم يعهد فى غيرها من بلاد الزمن القديم ، ولا تكفى كلمة او كلمات للحكم بانفصال اللغات ، فان الاقليمين فى قطر واحد لايتفقان فى جميع الكلمات

فمن التاريخ الثابت ان ابناء الجنوب لم ينقطعوا عن الشمال ولم تزل لهم آثار مكتوبة فيها الى الآن . وقد وجدت بعض هذه الآثار بالخط الجنوبى واللغة الشمالية مما يدل على تشابه الكلام والنطق مع بقاء الكتابة بخط الجنوب

وحدثت فى تاريخ الجنوب حوادث متعاقبة نقلت زعامة الشمال الى الشماليين وجعلت أهل الجنوب تبعا لهم كلما وفدوا على الشمال ، وذلك بعد قيام الدولة النبطية التى ازدهرت فى القرن الرابع للميلاد وتغلغل روادها وتجارها فى الغرب كما ظهر من بعض نقوشهم فى بحر ايجه وفى ايطاليا الجنوبية

وقد كان من أسباب ضعف الجنوب وقيام دولة النبط فى الشمال اضطراب بلاد اليمن بعد حروب الاسكندر واجتياحه لدولة فارس التى كان لها الاشراف على حكومة اليمن وتجارة الهند والشرق عامة فى الاقطار العربية ، وبعد انهيار سد مأرب وانتشار القراصنة فى خليج العجم وبحر العرب والبحر الاحمر . فغلبت طريق القوافل التى تمر بالحجاز على جميع الطرق الأخرى وتقاربت الصلة بين النبط والحجازيين واخذ الحجازيون بالخطة الوسطى التى

تلتقى عندها سبل الجنوب والشمال والشرق والغرب فى كل بقعة عربية لم تكن للفرس حماية عليها ، واشتعلت الحروب بين اللخميين على خليج العجم والغساسنة فى بادية الشام فانحصر الامان أو كاد على طريق الحجاز ، واحتاج النعمان بن المنذر ـ صاحب الحيرة ـ الى زعماء مضر لحماية تجارته داخل الجزيرة الى مكة ، فكان من أسباب يوم نخلة انه أراد رجلا يجيز قوافله على أهل نجد فتنازعها البراض وعروة الرحال سيد هوازن ، وقال له هذا انه يجيزها على أهل الشيح والقيصوم فى أهل نجد وتهامة ، ثم نشبت الحرب فاحتكم الجميع أخيرا الى سيد من سادات مكة عبد الله بن جدعان

وانقضت عدة قرون على اتصال النبط والحجاز ، وعمل الحجازيون على تعظيم شأن الحجاز بين النبطيين فوضعوا فى الكعبة تماثيل أرباب يعبدها النبطيون يعد منها الرواة هبل واللات ومناة التى قيل انها من « المنية » بمعنى « القدر المقدور » معبود النبطيين ، وقولهم حانت منيته وحان قدره معنى واحد عند عباد مناة

ولا شك أن قصة « عمرو بن لحى » الذى اتفقت الأخبار على أنه نقل الأصنام من بلاد النبط الى الكعبة انما هى وسيلة من وسائله لتعظيم شأن الكعبة عند أهل الشمال وايناسهم بها كلما رحلوا الى الحجاز وتقريب مابينهم وبين شعائر البيت الحرام ، وهم جميعا حريصون على تحريم هذه الشقة وحماية روادها من كل قبيل

وأخطر من ذلك كله أثرا فى اعظام شأن الكعبة انها

المفخرة القومية والحرم الالهى الذى بقى للعرب بعد سيادة الروم على غسان وتقلب الحبشة والفرس على اليمن وشعور اللخميين ـ سادة الحيرة ـ انفسهم بمناعة الكعبة ومناعة الطريق فى أيدى مضر ومن يواليها ، وهو أن سلطان هؤلاء اللخميين حتى آل بهم الأمر الى الدثور ، ثم جاءت وقعة ذى قار التى انتصر فيها العرب على الفرس بعد زوال دولة اللخميين وقضاء الفرس عليها فهزت الجزيرة من اقصاها الى أقصاها ونمت على نخوة قومية عربية تمكنت من نفوس القبائل جميعا فاشرأبت أعناقها زمنا الى كل ملاذ تقصر عنه أيدى فارس والروم

هؤلاء القوم الذين يفخرون بأنسابهم فيما بينهم ، ويفخرون بجنسهم بين سائر الاجناس ، قد حل اللغة عندهم محل العرش والدولة ومحل البذخ والحضارة ومحل العلم والصناعة ، حتى أصبح الفخر بها علامة من العلامات التى يتميزون بها فى عرف علماء الاجناس البشرية . فاذا وجد الفخر باللغة فتلك علامة العربى بين العناصر عامة من أقاربه الساميين الى الغرباء عنه من الآريين والطورانيين والحاميين ، ثم تتجلى فيهم ـ دون سائر الأمم ـ تلك الظاهرة الفريدة فى تواريخ الأديان والثقافات ، وهى العلو بالبلاغة حتى تكون البلاغة فى قسطاس كل مخاطب بالقرآن الكريم تحديا نبويا ، وتحديا ربانيا ، من معجزات الاله التى لا تتسامى اليها قدرة البلغاء فى أمة اللسن والبيان

وهذه ظاهرة متجلية للنظر القريب والبعيد لا تحتاج من المستشرقين الى بحث عن مجهول او معلوم . فما

يجيء الكتاب بهذه المعجزة لامة خلت من مأثورات البلاغة في شعرها وجوامع كلماتها ، وما هو بجائز عقلا ان يتحداها القرآن وهي لا تعرف من كلامها شيئا يتجه اليه ذلك التحدي وتدور عليه الموازنة في عرف الخبراء بالكلم البليغ . فالقياس المستقيم ان القرآن نزل في قوم لهم بلاغة موروثة يتناقلونها ولا يجهلون اعلامها ، واما القول بأن بلاغة الجاهلية لم تكن حقيقة واقعة وانما اصطنعها الرواة اصطناعا بعد الاسلام سندا للقرآن ودفعا للشبهات عنه بين المؤمنين به ـ فليس من القياس المستقيم في مقياس غير مقياس أولئك المستشرقين ، وما كان الجاهلي الكافر ليقبل آية القرآن ولا يشك في فصاحة القرآن ثم يأتي المسلم المؤمن فلا تثبت له فصاحة القرآن الا بكلام يخلقه خلقا لينسب الى أولئك الجاهليين ، ولقد حدث نقيض ذلك في كثير من الشواهد على صحة اللغة وسلامتها ، فكان القرآن مرجع المصححين فيما يختلفون عليه ويبتغون له سندا لا مراء فيه

ومهما يبلغ من ضعف الذاكرة بالبادية ـ وليست هي بالضعيفة ـ فلن يبلغ من نسيانها أن ينقطع الجد عن أخبار أبيه واخبار بنيه ، وان ينسى لغة سمعها في حياته او سمعها ابوه قبل مولده ، فما كان جيلان او ثلاثة اجيال بالامتحان العسير لذاكرة قوم لا معول لهم على غير الذاكرة ورواية الاخلاف عن الاسلاف ، وانه ليمتنع او يستحيل أن ينشأ الاسلام في جيل يجهل اللغة التي تنسب الى شعراء المعلقات واقدمهم لم يسبق جيل الاسلام باكثر من مائة وخمسين سنة ، وفي هذه السنين خاصة توحد

حساب التاريخ وتولاه قلامس العرب وخالفوا فيه تقويم اليهود فى حساب النسيء . فكان جنادة بن عوف ناسئا عند ظهور الاسلام ، وسبقه ابوه عوف بن امية وسبقه ابوه امية بن قلع وسبقه ابوه قلع بن عباد ، وسبقهم آخرون الى عهد القلمس من بني كنانة ، فهم فى تاريخ معلوم متسلسل قبل الاسلام بأربعة اجيال

ومن فهاهة المستشرقين هؤلاء انهم لايختارون من تاريخ العرب مطعنا يصيبونه غير اللغة والانساب ، وكلهم يتحذلقون على العلم فى شكوكهم الموكلة بالتاريخ العربى أو الاسلامى من اقدم عهوده ، ثم يأتى العلم فيثبت بالكشوف المحسوسة صدق الخرافة المزعومة وكذب العلماء الزاعمين حتى لقد اصبح التخريف حقا لهؤلاء المحققين الذين لايعرفون من التحقيق الا اتهام كل رواية عربية أو اسلامية بالتخريف

فمن اقطاب هؤلاء المخرفين من انكر عادا وثمودا وانكر الكوارث التى اصابتهم بغير حجة الا انه يحسب ان المنكر لايطالب بحجة ولا يعاب على النفى الجزاف . فما لبثوا طويلا حين تبين لهم أن عادا (Oadita) وثمودا (Thamudida) مذكورتان فى تاريخ بطليموس وان اسم عاد مقرون باسم ارم فى كتب اليونان ، فهم يكتبونها « أدراميت » Adramitae ويؤيدون تسمية القرآن لها بعاد ارم ذات العماد ... وعثر المنقب موزيل التشكى Musil (١) صاحب كتاب الحجاز الشمالى على آثار هيكل عند « مدين » منقوش عليه كلام

(1) Northern Hejaz by Musil.

بالنبطية واليونانية وفيه اشارة الى قبائل ثمود

ومن أقطاب هؤلاء المخرفين من أنكر ابرهة ونكبة جيشه واهتمامه بتعطيل الكعبة وبنائه القليس فى صنعاء لصرف العرب عن الكعبة اليها . ثم تنكشف النقوش عن اسمه على خرائب سد مأرب ملقبا بالامير الحبشى من قبل « ملك الحبشة وسبأ وريدان وحضرموت واليمامة وعرب الوعر والسهل » ... ويتواتر الخبر عن الجدرى الذى تفشى فى منتصف القرن السادس للميلاد فيذكره بروكوب (Procobe) من وزارء القسطنطينية ، ويروى الرحالة بروس (Bruce) الذى زار بلاد الحبشة فى القرن الثامن عشر أن الاحباش يذكرون فى تواريخهم أن أبرهة قصد الى مكة ثم ارتد عنها لما أصاب جيشه من المرض الذى يصفونه بصفة الجدرى ، ولا يقل عن هذه الاسانيد جميعا سند التاريخ بعام الفيل قبل البعثة المحمدية بجيل واحد ، بل أقل من جيل

وسد مأرب برمته لم يسلم من التكذيب ، وبناء قريش للكعبة بعد مولد النبى هو ايضا تخريف فى زعم هؤلاء المخرفين ولكنه لقى من يدحضه من المؤرخين الاوربيين المعاصرين ، فكتب كرزويل تحقيقه الذى يقول فيه « ان العالم ليونى كايتانى يذهب الى القول بأن قصة تعمير قريش للكعبة ليست الا خرافة من نسج الخيال ، فاليوم يثبت لنا جليا بعد ماأوردناه من الحقائق من بناء الكعبة على الطراز الحبشى فى سنة ٦٠٨ ميلادية ووجود الصور المسيحية التى كانت تحلى باطنها وقيام معمار حبشى ببنائها

ـ وهى جميعا حقائق متماسكة آخذ بعضها برقاب بعض ـ صدق رواية المؤرخين الذى قصوا أخبار هذه العمارة وصحة ماذهبنا اليه وبطلان مايدعيه كايتانى من اختراع هذه القصة وتلفيقها » (١)

ونحن نقف بهذه التواريخ عند حدها ولا نجاوز بها مداها ، فحسب الناظر فى التاريخ أن يفهم منها أن أخبار العرب عن لغتهم وعن أوائلهم لاتدحض جملة واحدة ، وقد تخالطها المبالغة وتتناقض حولها الغرائب ، بل ربما كان من دواعى ادحاضها أن تبرأ من كل مبالغة وغرابة ، فأما الكذب الذى يعاب على العلم ويلحقه بالخرافة فهو هذا التحقيق الذى هو أهون وأضر من التخريف

▭

ان الحوادث الكبرى تستدعى المقارنة بين فهمنا لها بمقاييس العلم ومقاييس الفلسفة ومقاييس العقيدة ، وتوحى الينا فى جميع الأحوال أن مقاييس العقيدة أخلصها الى أعماقها واقدرها على التفسير كلما استجاشت العقيدة فى الأمم قوة الحياة وقوة الضمير

والاسلام قد استصفى تاريخ العرب قبل دعوته فجمعه كله فى الوحدة القومية وأقام هذه الوحدة على ركنيها اللذين لا قوام لها بغيرهما على تساند واتفاق : وهما ركن اللغة وركن الحرية الدينية ، وكلاهما كان تمهيدا صالحا لظهور الدعوة الاسلامية

---

(١) المجلة التاريخية المصرية ، عدد أكتوبر سنة ١٩٤٩

الا ان معجزة الاسلام فى جميع مقدماته ونتائجه ان هذه النتائج لم تكن قط منقادة مسخرة لتلك المقدمات ، فان هذه العصبية اللغوية الدينية قد آلت فى يد الاسلام الى دعوة انسانية عالمية لاتنكر شيئا كما تنكر العصبية الجاهلية ، ولا تعرف ربا غير رب العالمين ولا قسطاسا غير قسطاس العمل الصالح يتفاضل به القرشى والحبشى والعربى والأعجمى وعترة النبى ومن ليست بينه وبين النبى لحمة غير لحمة الايمان ..

ونعود فنقول ان شأن اليهودية فى توضيح هذه الحقائق أعظم من كل شأن لها فى الجزيرة العربية . فمما لانزاع فيه أن أناسا من اليهود قدموا الى الجزيرة بلغة غير اللغة الحجازية فاحتفظوا بلغة الدين للدين ولم يمض عليهم زمن طويل حتى عم التفاهم بينهم وبين سائر العرب بلسان الحجاز وتهامة ونجد ومن جاورهم من الأنباط وعرب الحيرة وبادية الشام ، وهذه حقيقة تاريخية واقعية مسقطة لكل دعوى يتحذلق بها ادعياء العلم من محترفى التبشير والاستشراق.

المسيحية فى الجزيرة

أما المسيحية فقد كان لها مدخل الى الجزيرة العربية غير هذا المدخل . فلم تصل الى داخل الجزيرة عشيرة كبيرة او صغيرة من المهاجرين ، ولم يأتها قوم بلسان غير اللسان العربى كما حدث فى هجرة اليهود ، ولكنها شاعت بين قبائل من العرب فى جيرة الدول التى سيطرت على

اطراف الجزيرة ، وهي بيزنطية وفارس والحبشة ، وكان لمذهب العاهل القائم بالامر في دولة بيزنطية اثر كبير في توجيه النحل والمذاهب في بلاده وبلاد اعدائه . وقد حدث في مدى قرن واحد ان العواهل كانوا يحرمون المسيحية على رعاياهم ثم دانوا بها على مذهب وجاء من بعدهم فدان بها على مذهب يعاديه ويرميه بالكفر والزندقة . فمن شاء اقام مع العاهل في بلاده طائعا له او مداريا لامره والا ففي بلاد اعدائه من الفرس متسع له يعلن فيه مذهبه وينطلق في تسفيه العاهل وشيعته غير ملوم ولا ممنوع

وافلت الى الجزيرة العربية آحاد من كل نحلة مسيحية غضب عليها عاهل القسطنطينية ، فهاجرت اليها فئات متفرقة من اتباع آريوس واوريجين ونسطور ولوسيان الانطاكي وجماعة المشبهين وجماعة القائلين بالطبيعة الواحدة والقائلين بالطبيعتين

وكان نسطور بطرقا للقسطنطينية يتشر مذهبه بأس الدولة ثم عزل وتعقبه خصومه بالنفي الى ارض النوبة ، ومحور مذهبه انه يفصل بين الناسوت واللاهوت في السيد المسيح ويرفض القول بتأليه العذراء عليها صلوات الله ، وكان الانطاكي يناقض تفسير الكتب الدينية بأسلوب المجازات والرموز ويلتزم اللفظ والنص في فهم معانيها ومسائلها الغيبية . وكان آريوس يقول ان الكلمة هي واسطة الخلق ويقول اوريجين انها مخلوق محدث له الشرف على سائر المخلوقات ، وان هذه الكلمة تجسمت في السيد المسيح فظهرت على مثال الانسان ، وآخرون يقولون ان جسد

السيد المسيح تشبيه بالجسد وليس بالجسد المادى الذى يحكى جسد الانسان ، وانه فى لاهوته أجل وارفع من ان يتعذب او يتضرع ، وصيحته عند الصلب لم تكن « ربى ! ربى ! » بل كانت : قوتى ! قوتى ! كما ورد فى بعض النصوص

ويعترف جورج سيل مترجم القرآن بما كانت عليه حال المسيحيين فى الحجاز من السوء والضلالة، فيقول فى مقدمته للترجمة « من المحقق ان ما الم بالكنيسة الشرقية من الاضطهاد واختلال الاحوال فى صدر المائة الثالثة للميلاد قد اضطر كثيرين من نصاراها ان يلجأوا الى بلاد العرب طلبا للحرية وكان معظمهم يعاقبة فلذا كان معظم نصارى العرب من هذه الفرقة . واهم القبائل التى تنصرت حمير وغسان وربيعة وتغلب وبهراء وتنوخ وبعض طيىء وقضاعة واهل نجران والحيرة ... ولما كانت النصرانية بهذه المثابة من الامتداد فى بلاد العرب لزم عن ذلك ولابد انه كان للنصارى اساقفة فى مواضع جمة منها لتنتظم بهم سياسة الكنائس وقد تقدم ذكر اسقف ظفار وقال بعضهم كانت نجران مقام اسقف وكان لليعاقبة اسقفان .. يدعى احدهما اسقف العرب باطلاق اللفظ وكان مقامه باكولة وهى الكوفة عند ابن العبرى او بلدة اخرى بالقرب من بغداد عند ابى الفداء ، وثانيهما يدعى اسقف العرب التغلبيين ومقامه بالحيرة . اما النساطرة فلم يكن لهم على هذين الكرسيين سوى اسقف واحد تحت رئاسة بطريركهم »

الى ان يقول : « اما الكنيسة الشرقية فانها اصبحت بعد انفضاض المجمع النيقاوى مرتبكة بمناقشات لا تكاد تنقضى

وانتقض حبلها بمماحكات الاريوسيين والنساطرة واليعقوبية وغيرهم من اهل البدع . على ان الذى ثبت بعد البحث ان كلا من بدعتى النساطرة واليعقوبية كانت بأن تدعى اختلافا فى التعبير عن المعتقد اولى من ان تدعى اختلافا فى المعتقد نفسه ، وبأن تدعى حجة يتعنت بها كل من المتناظرين على الآخر اولى من ان تدعى سببا موجبا لالتئام مجامع عديدة يتردد اليها جماعة القسان والاساقفة ويتماحكون ليعلى كل واحد منهم كلمته ويحيل القضايا الى هواه . ثم ان نافذى الكلمة منهم واصحاب المكانة فى قصر الملك كان كل واحد منهم يختص نفرا من قواد الجيش او من اصحاب الخطط يكون له عليهم الولاء ويتقوى بهم ، وبذلك صارت المناصب تنال بالرشى والنصفة تباع وتشترى جهارا . اما الكنيسة الغربية فقد كان فيها من تهالك دماسوس وارسكينوس فى المشاحة على منصب الاسقفية ـ اى اسقفية روته ـ ما افضى الى احتدام نار الفتنة وسفك الدماء بين حزبيهما .. وكان اكثر ماتنشأ هذه المناقشات عن القياصرة انفسهم ولا سيما القيصر قسطنطينوس فانه اذ لم يقدر ان يميز بين صحيح الدين المسيحى وخرافات العجائز ربك الدين بكثير من المسائل الخلافية .... هذا ما كان عليه حال النصرانية فى غير بلاد العرب . اما فى بلاد هذه الامة التى هى موضوع بحثنا فلم تكن خيرا من ذلك ... فكان فى نصارى العرب قوم يعتقدون ان النفس تموت مع الجسد وتنشر معه فى اليوم الآخر وقيل ان اوريجانوس هو الذى دس فيهم هذا المذهب ، وكم وكم من بدعة انتشرت فى جزيرة العرب حتى لا نقول

نشأت فيها ؟! فمن ذلك بدعة كان اصحابها يقولون بالوهية العذراء مريم ويعبدونها كانت هي الله ويقربون لها اقراصا مضفورة من الرقاق يقال لها كليرس وبها سمي اصحاب هذه البدعة كليريين ... وفضلا عن ذلك فقد اجتمع ايضا في جزيرة العرب عدد وافر من الفرق المختلفة الاسماء لجأوا اليها هربا من اضطهاد القياصرة ... »

فالحالة التي تمثلت بها النصرانية في جزيرة العرب لم تكن حالة هداية يحيط بها مذهب واحد صالح لتعليم من يتعلمه ، بل كانت شيعا سياسية ومذاهب متنازعة يتوقف العلم بالصالح منها على هدى الناظرين فيها وعلى ما عندهم من البصر الثاقب والبداهة المنزهة التي يعود اليها الفضل فيما تقبله وتأباه ، ولا فضل عليها لمن يعلمها نحلة من تلك النحل تقدح في سائرها وترمي الذين يتبعونها بالكفر والضلال

والقرآن الكريم يصف هذه الحالة بين اهل الكتاب جميعا كما جاء في سورة المائدة عن طوائف اليهود والنصارى

قال عز من قائل : « ولقد اخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال الله اني معكم لئن اقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم واقرضتم الله قرضا حسنا لاكفرن عنكم سيئاتكم ولادخلنكم جنات تجري من تحتها الانهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ، فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم فاعف عنهم

واصفح ان الله يحب المحسنين ، ومن الذين قالوا انا نصارى اخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فاغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون »

هذه حالة النصرانية فى الحجاز كما عهدها النبى عليه السلام قبل مبعثه ، وهى بهذه المثابة من مقدمات رد الفعل لا من مقدمات التمهيد والتحضير ، سواء كان ذلك فى امر النبى او امر الحكماء من طلاب الهداية الذين عرفوا باسم المتحنفين او المتحنثين

وينبغى الاحتراس من قول القائلين ان احدا من اولئك المتحنفين او الحنفاء تنصر أو تهود على مذهب مفصل مستوعب لعقائد النصرانية او اليهودية ، فكل ما يصح من اخبار الحنفاء انهم كانوا يعرفون ان الايمان بالاله الواحد اهدى واحكم من الايمان بالنصب والاوثان ، ونحسب ابن هشام قد صدق الرواية حقا حين قال عن اشهر هؤلاء المتحنفين زيد بن عمرو بن نفيل انه « وقف ولم يدخل فى يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الاوثان والميتة والذبائح التى تذبح على الاوثان ونهى عن قتل الموءودة. وقال اعبد رب ابراهيم ... وكان يسند ظهره الى الكعبة ويقول : يا معشر قريش ! والذى نفس زيد بن عمرو بيده ما اصبح منكم على دين ابراهيم غيرى . ثم يقول : اللهم لو انى اعلم اى الوجوه احب اليك عبدتك ولكنى لا اعلم »

ومثل ابن نفيل ورقة بن نوفل الذى قصدت اليه السيدة

خديجة لتسأله عن جبريل الذى نطق النبى عليه السلام باسمه امامها ، فانه كان يطيل القراءة فى كتب اليهـــود والنصارى ويعلم ان عبادة الاصنام ضلالة فيلتمس الهداية فى غيرها ولا يستوفى العلم ولا الايمان بأى الديانتين ، وغاية الامر فى نصرانيته كما قال ابن هشام انه « كان نصرانيا تتبع الكتب وعلم من علم الناس » .. وقد ذكر عنه مع ثلاثة من أصحابه ، أحدهم ابن نفيل ، انهم كانوا قد انصرفوا من عند صنم يعظمونه فى يوم عيد فقال بعضهم لبعض : « تعلموا والله ماقومكم على شىء .. لقد اخطأوا دين ابيهم ابراهيم . ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع . يا قوم ! التمسوا لانفسكم فانكم والله ما انتم على شىء »

قال ابن هشام : فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفة دين ابراهيم

ونحن نعلم من القرآن الكريم أن المشركين كانوا يقولون انهم لم يعبدوا الارباب والاوثان الا ليقربوهم الى الله زلفى ، وسنرى فى الكلام على الكعبة ان الحقبة التى سبقت بعثة النبى شهدت طوائف من المجتهدين فى العبادة منهم طائفة الحمس التى اختصت الحرم وحده بالتقديس وتنسكت بضروب من العبادة لم يتبعها احد من قبلهم فى الجاهلية . فقد كانت الحقبة اذن حقبة حائرة بين العبادات ولم تكن عبادة منها لتستأثر بضمير صاحبها او تغنيه عن النظر فى غيرها ، وقد كانت هذه الحيرة فى جانب من جوانبها على الاقل اثرا من آثار الجامعة القومية او اثرا من آثار الشوق الى ديانة جامعة غير ديانة الاصنام المتفرقة لكل قبيلة من

القبائل صنم تنفرد به او تميزه بين زمرة الاصنام المشتركة

فقد كانت القبائل تعبد اصنامها ولم تكن بها حاجة الى الاشتراك فى عبادة واحدة تشملها . فلما وجدت هـذه الحاجة لمسوا النقص فى كل عبـادة من عباداتهم وذهب اصحاب النظر منهم يبحثون عن الدين الصالح ويستلهمون من كلمة « بيت الله » قبسا يقربهم من الله ومن ديانة رب البيت وبانيه ابراهيم عليه السلام ، وقديما نسب الحجازيون أنفسهم الى اسماعيل بن ابراهيم ونسبهم اليه اصحاب التوراة وعلماء الانساب

وان اصدق وصف للحالة الدينية فى عصر البعثة الدينية انها حالة نقص فى كل نحلة وكل عقيدة . فلم نعلم من اخبار الوثنية قط انها كانت تستوعب المؤمن بها وتمنعه ان يأخذ ببعض الشعائر من هنا وان يتقبل بعض الآراء من هنـاك ولم تكن الحدود بين النحل والعادات الدينيـة متحجرة مستقرة على قرار لا يأذن بالتبديل والزيادة والتحوير ، ولم يكن المتدين منهم جميعا يتنبه الى الابتداع فى امر الدين الا أن يسومه الخروج على قومه والزراية بشرعة الآباء والاسلاف فيومئذ تنقلب المسألة من تصرف فى الشعائر والآراء الى النخوة العصبية والغـيرة على الاحساب والانسـاب ، وتصطدم البدعة الجديدة اذن بالعصبية القومية كلها فى ابان اليقظة والطموح ، وهذه الصدمة لم تفاجىء ابنـاء الجاهلية قط من نحلة يحكونها او يستجيبون لها بحكم المسايرة والمجاراة ، وانما فاجأتهم من دعوة الاسلام وحده فتمردوا عليه ذهابا مع العصبية وتراث الحسب والنسب

ولم يتجردوا عليه ذياذا عن ملة شاملة تستأثر منهم بالضمائر والافكار

فالوحدة القومية مهدت للاسلام الى حد محدود ، ويسرت له الامر بالتوقع والانتظار ثم وقفت دون الغاية حين اصطدمت القومية بالدعوة الجديدة ووجب ان تثوب الدعوة الجديدة الى قوة اكبر من قوة القومية التي اعتز بها المشركون وخلطوها بما الفوه من السيادة والمصلحة في التراث القديم

فبالوحدة القومية تمهدت طريق الاسلام ، وبقوة الاسلام برزت من الوحدة القومية شريعة الانسان وعبادة رب العالمين

ولم نذكر فيما تقدم عاملا من اشهر عوامل هذه الوحدة القومية وهو يوم ذي قار الذي انتصر فيه العرب على الفرس وارتجت له الجزيرة العربية بالفخر والامل في مطلع العصر الاسلامي وعند ولادة النبي عليه السلام

لم نذكره لنضعه كما وضعه اناس في مقدمة العوامل الكبرى ، ولا نستاء هنا لتحسبه منها ولا نقدمه عليها ، فلو لم يكن يوم ذي قار لكانت الوحدة العربية وكانت توابعها التي لحقت بها في أوانها . ولعل وثبة ذي قار جاءت بعد الوحدة القومية ولم تسبقها ، ولعلها كانت الجولة الثانية بعد الجولة الاولى على تخوم الدولة الفارسية ، فلما تنازع أمراء الحيرة وشواهين الدولة غلبت الدولة على الامارة وقضى الاكاسرة والشواهين على المناذرة والغساسنة ، ولما التقت سطوة فارسية ونخوة عربية في الجولة التالية ظفرت القبائل حيث اخفق الامراء

كانت ذو قار وليدة النخوة العربية ولم تكن امها التي ولدتها ، وانما كانت ام الامهات في هذه النهضة وحدة اللسان ووحدة الجنان

النبوة المحمدية

أوائل النبوات

ندع الآن هذه الوحدة ريثما نعود اليها فى الكلام على الكعبة المكية ، ونرجع بتاريخنا الى أوائل النبوات لنمضى بها الى ختامها بالرسالة المحمدية ، فان تاريخ النبوة من أوائلها أصلح المقدمات لبيان فضل النبوة كما بعث بها خاتم الانبياء

من قديم الزمن وجدت الرغبة فى العلم بالغيب واستطلاع المجهول ، ووجدت لذلك علامات كثيرة يتفق عليها الناس عامة من قبيل زجر الطير والتفاؤل بالكلام المسموع والمناظر التى تبشر بالخير والنجاح او تنذر بالشر والخيبة

هذه العلامات العامة كانت معرفة شائعة بين الناس لا يختص بها أحدهم دون غيره ، فكل ماعرفه الناس قديما من علامات التفاؤل او علامات التشاؤم فهو ميراث الجماعة يتناقلونه على وتيرة واحدة من الآباء الى الابناء

لكن الرغبة فى استطلاع الغيب ومواجهة المجهول لم تكن كلها من هذا القبيل ، ولاسيما المجهول الذى يعرفه الآلهة وحدهم ولايكشفونه لغير المقربين من عبادهم ، وهم خدام معابدهم والامناء على مشيئتهم والمترقبون لوحيهم فى ليلهم ونهارهم ، فربما عرض للقبيلة عارض جسيم لا تعرف وجهتها فيه ، ولا يدلها على هذه الوجهة طير يراه فرد من افرادها على صورة من الصور ، أوكلمة يسمعها من عابر

طريق يستوحى منها البشارة او الانذار ، فان شئون الفرد غير شئون القبيلة ، وليس لفرد من عامة أفرادها أن يدعى لنفسه القدرة على سؤال أربابها والفهم عنهم فى معابدهم ومحاريبهم ، مع وجود الكاهن الذى انقطع لخدمة الأرباب وورث هذه الخدمة من آبائه وأجداده فى أكثر الأحوال ، ولا مع وجود الكاهن الذى تربى من صباه فى مهد العبادة ليقترب من الارباب المعبودين ويفقه عنهم من اشـاراتهم ومضامين وحيهم مايخفى على سواه

ومن قديم الزمن ايضا وجد الكاهن « المختص » ووجد « الرائى » الملهم الذى يختاره الاله للنطق بلسانه والجهر بوعده ووعيده ، ولم يكن بين عمل الكاهن وعمل الرائى تناقض فى مبدأ الامر ، لان كلام الرائى كان يحتاج الى تفسير الكاهن وحل رموزه ونفى « النفاية » من خلطه واضطرابه اذ كان الغالب على الرائين أنهم قوم تملكهم حالة « الوجد » او « الجذبة » او « الصرع » فيتدفقون بالوعد والوعيـد وينذرون الناس بالويل والثبور ، ويقولون كلاما لا يذكرونه وهم مفيقون ، فيحسب السامعون أن الوثن المعبود يجرى هذا الكلام على السنتهم للموعظة والتبصرة ، وسمى الصرع من اجل هذا بالمرض الالهى فى الطب القديم

وكان اليونان يسمون الرائى مانتى Mantis ويسمون المعبر عنه أو المفسر لكلامه بروفيت Prophet أى المتكلم بالنيابة عن غيره ، قبل أن تطلق هذه الكلمة على النبى بمعناها المأثور فى الاديان الكتابية ، ولكن الفرق بين الرائى والكاهن لم يزل ملحوظا فى الازمنة المتأخرة كما كان ملحوظا فى الازمنة

الفارق ، فالكهانة وظيفة والرؤية طبيعة ، والكاهن يقصد مايقوله والرائى يساق اليه ، وقد تشترك الكهانة والرؤية فى شخص واحد ويظل العملان مختلفين ، فما يقوله الكاهن قصدا غير ما يقوله وهو « راء » ينطق لسانه بما يعيه وما لا يعيه

ويصطدم العملان كثيرا بعد ارتقاء الديانة وامتزاجها بالفضائل الاخلاقية والفرائض الادبية ، فان الكهان فى هذه الحالة يجمدون احيانا على المراسم والشعائر ويحافظون على مناصبهم بالتماس الحظوة عند ذوى السلطان فى بلادهم ، ويومئذ يختلف عمل الكاهن المرسوم وعمل الرائى المتطوع ، فيثور الرائى على الكاهن ويتهمه فى امانته وايمانه ، ويحدث بينهما ما حدث بين « امصيا » كاهن بيت ايل وعاموس الرائى ، اذ يحذره الكاهن على رزقه وحياته فيقول له : « ايها الرائى اذهب .. اهرب الى ارض يهودا وكل هناك خبزا وكن هناك نبيا . واما بيت ايل فلا تعد تتنبأ فيها بعد ، لانها مقدس الملك وبيت الملك »

▭

وقد وجدت الكهانة والرؤية بين العبرانيين من اقدم عصورهم كما وجدت فى سائر الامم ، ولم يسموا الرائى عندهم باسم النبى الا بعد اتصالهم بالعرب فى شمال الجزيرة .. اذ وجدت كلمة النبوة فى اللغة العربية كما قلنا فى كتاب ابى الانبياء « غير مستعارة من معنى آخر ، لان اللغة العربية غنية جدا بكلمات العرافة والعيافة والكهانة وما اليها من

الكلمات التى لا تلتبس فى اللسان العربى بمعنى النبوة كما تلتبس فى الالسنة الاخرى ... والعبريون قد استعاروها من العرب فى شمال الجزيرة بعد اتصالهم بها ، لانهم كانوا يسمون الانبياء الاقدمين بالآباء وكانوا يسمون المطلع على الغيب بعد ذلك باسم الرائى والناظر ، ولم يفهموا من كلمة النبوة فى مبدأ الامر الا معنى الانذار ... وقد أشارت التوراة الى ثلاثة أنبياء من العرب غير ملكى صادق الذى لقيه الخليل عند بيت المقدس .. وهم يثرون وبلعام وأيوب ومنهم من يقال أنه ظهر قبل اثنين وأربعين قرنا وهو أيوب »

ويعزز هذا الرأى ماجاء فى موسوعة الكلمات اللاهوتية (١) فى التوراة عن عالمين من أكبر علماء التاريخ العبرى وهما هولشر Holscher وشميدت Schmidt فانهما يرجحان أن كلمة النبوة مما استفاده العبريون من أهل كنعان بعد وفودهم على فلسطين

النبوة والجنون

عرف الاقدمون من العرب والعبريين كلمة النبوة قبل بعثة موسى عليه السلام ، ولكنها لم ترتفع بينهم الى مكانتها الجليلة التى نعهدها اليوم دفعة واحدة ، وغبر عليهم دهر طويل وهم يخلطون بينها وبين كل علاقة بالغيب ، وينتظرون منها الكذب كما ينتظرون منها الصدق شأنها فى ذلك كشأن غيرها من الدلالات على المجهول

فخلطوا بينها وبين الجنون ، كما خلطوا بينها وبين السحر

(1) A Theological Word Book of the Bible, edited by Richardson.

والكهانة والتنجيم والشعر ، واضعف من شأن النبوة عند بنى اسرائيل خاصة أن الانبياء بينهم كثروا وتعددت نبوءاتهم فى وقت واحد فتناقضوا وأشار بعضهم بما ينهى عنه الآخرون ، فأصبح الانبياء عندهم فريقين يتشابهون فى المسلك والمظهر ويختلفون بالصدق والكذب ، ولا سبيل الى معرفة الصادق والكاذب بغير امتحان الحوادث التى تأتى أحيانا بعد نسيان ماتقدم من النبوءات

وغلبت عليهم فى مبدأ الامر عقيدة شائعة بذهول النبى وغيابه عن الوعى فى جميع ايامه وفى الايام التى يملكه فيها الوجد الالهى على الخصوص ، كأنهم يرون أن الغيبوبة والاتصال بالغيب شىء واحد ، وكأنهم يحسبون أن الانقطاع عن شواغل الدنيا آية على صدق النبى واقباله بجملته على الله

ويؤخذ من سفر صمويل الاول أن المتنبئين كانوا يظهرون جماعات جماعات « اذ أرسل شاول رسلا لاخذ داود فرأوا جماعة الانبياء يتنبأون وشاول واقفا بينهم رئيسا عليهم ، فهبط روح الله على رسل شاول فتنبأوا هم أيضا وأرسل غيرهم فتنبأ هؤلاء ... فخلع هو أيضا ثيابه وتنبأ هو أيضا امام صمويل وانطرح عاريا ذلك النهار كله وكل الليل »

ومن لم تملكه حالة الوجد برياضة النفس على الخشونة والشظف وتعريض جسده لحرارة الشمس وبرد الليل فقد يستعين على اكتسابها بالسماع والجولان وينتقل بهذه الوسيلة الى النشوة أو الغيبوبة فينطلق لسانه بالنبوءات والرموز ويستخلص منها السامعون تفسيرها بما جرت عليه عادتهم من التأويل والتخريج

وفى سفر صمويل قبل ذلك « انه يكون عند مجيئك .. الى المدينة انك تصادف زمرة من الانبياء نازلين من الأكمة وأمامهم رباب ودف وناى وعود وهم يتنبأون ، فيحل عليك روح الرب فتتنبأ معهم وتتحول الى رجل آخر »

وفى سفر الأيام الاول ان دواد ورؤساء الجيش « أفرزوا للخدمة بنى آساف وهيمان ويدوثون المتنبئين بالعيدان والرباب والصنوج »

وقد ينعزل بنو الانبياء كأنهم يرشحون انفسهم للنبوة بعد آبائهم حتى يضيق بهم مكانهم كما جاء فى سفر الملوك الثانى : « وقال بنو الانبياء لأليشع هوذا الموضع الذى نحن مقيمون فيه أمامك قد ضاق علينا فلنذهب الى الاردن »

وعلى هذه الحيرة التى كانت تنتاب القوم بين النبوءات الكثيرة لم يكن بهم غنى عن النبى الصادق الذى يحذرهم غضب الله ويبلغهم مشيئته ويملى عليهم فرائضه وأحكامه فلم يعرضوا عن الانبياء كل الاعراض ولم يقبلوا عليهم كل الاقبال ، ورجعوا الى التجربة فى التفرقة بين النبوءات ، وعقيدتهم فى ذلك ماجاء فى سفر التثنية خطابا لموسى عليه السلام : « واقيم لهم نبيا من وسط اخوتهم مثلك واجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ، ويكون ان الانسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه . وأما النبى الذى يفرض عليكم باسمى كلاما لم أوصه ان يتكلم به أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى وان قلت فى قلبك كيف تعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب فما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهو الكلام

الذى لم يتكلم به الرب ، بل بطغيان تكلم به النبى فلا تخف منه »

وعلى هذا انقسم المتنبئون اقساما ثلاثة : نبى يتكلم باسم الرب ، ونبى يتكلم باسم آلهة اخرى ، ونبى يتكلم باسم رب اسرائيل ولكنه يطغى بما فى قلبه على وحى ربه ، فيخلط بين مايقوله هو بلسانه وبين مايجريه الله على لسانه ليبلغه الى قومه

والمرجع فى التفرقة بين الانبياء الى صدق النبوءة ، فاذا امتد الاجل بالنبى حتى يشهد القوم صدقه فى نبوءة بعد اخرى فذاك هو النبى المختار الذى يطاع وتكتب عنه النبوءات ، وربما قضى صدر حياته مهانا منبوذا بين قومه كما حدث للنبى ارميا الذى أصبح عند كتابة العهد القديم فى زمرة كبار الانبياء ، وقد حكى ذلك فقال فى الاصحاح العشرين : « قد اقنعتنى يارب فاقتنعت والححت على فقبلت ... صرت للضحك كل النهار .. وكلهم قد استهزأ بى . لأنى كلما تكلمت صرخت ... ناديت ظلم واغتصاب .. فقلت لا اذكره ولا انطق بعد باسمه ، فكان فى قلبى كنار محرقة محصورة فى عظامى .. »

نبوءة الأحلام والرؤى

ومن الحق ان نذكر ان المتنبئين لم يتطلعوا جميعا الى مكان النبوة العليا ـ نبوة القيادة والتعليم والتشريع ـ ولم تكن نبوة الكثيرين منهم مستمدة من شىء غير الاحلام والرؤى وجيشان الشعور والحاحه على صورة واحدة ، يعجز المتنبىء عن صرفها فيجهر بها صارخا كما فعل ارميا كانه

يستغيث من لاعج فى نفسه لا يقوى على كتمانه . ومنهم من كان يرى الرؤى ثم تتكرر فى منامه ، فيفضى بها الى قومه مخافة الكتمان وحذرا من أن يكون هذا الكتمان نكوصا عن الدعوة ومماألاة على العصيان والفساد ، وقل منهم من أبلغ قومه أنه تلقى الوحى من هاتف مسموع أو شخص منظور فى حالة اليقظة ، ومن هؤلاء القليلين صمويل الذى « سمع قبل أن ينطفىء سراج الله وهو مضطجع فى تابوت الرب صوتا يدعوه » ويعود الى دعوته لتوكيدها ، ومنهم دنيال الذى قال ان « الرجل جبريل الذى رآه فى الرؤيا ابتدأ يلمسه عند تقدمة الماء ويتكلم معه ويقول له أنه خرج ليعلمه الفهم ويرشده » .. ومنهم من كان يستعظم الدعوة حين يحسها فى صدره فيقول كما قال اشعيا : « انى هلكت لانى انسان نجس الشفتين أسكن بين شعب نجس الشفتين » الى ان قال « ان عينى قد رأتا الملك رب الجنود فطار الى واحد من السرافيم وبيده جمرة قد أخذها بملقط من على المذبح ومس بها فمى وقال ان هذه قدست شفتيك فانتزعت اثمك وكفرت عن خطيئتك »

وجاشت نفس ارميا وهو صبى بخواطر النبوة ثم القى اليه أن الرب يقول له : « قبلما صورتك فى البطن عرفتك وقبلما خرجت من الرحم قدستك . جعلتك نبيا للشعوب » فاستكثر النبوة على سنه وقال فى صلاته : آه ياسيد الرب من أين لى أن أعرف الكلام ولنا ولد ، فمد الرب يده ولمس فمه وقال : هاقد جعلت كلامى فى فمك ، فانظر ، لقد وكلتك هذا اليوم على الشعوب وعلى الممالك لتقلع وتهدم وتهلك وتنقض وتبنى وتغرس

ولقد خشى الانبياء الكبار على الشعب خطر المعجزات والآيات التى يدعيها المتنبئون ، لانهم عرفوا عجائب السحر فى مصر وبابل واشفقوا من فتنتها على عقول السواد فلم ينكروا المعجزة الصادقة ولكنهم حسبوا حساب المعجزة الكاذبة التى يقتدر عليها السحرة واتباع الارباب المحرمين فكان من وصايا سفر التثنية التى تنسب الى موسى عليه السلام « انه اذا قام فى وسطك نبى أو حالم حلما واعطاك آية أو أعجوبة ولو حدثت الآية أو الاعجوبة التى كلمك عنها قائلا لنذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها فلا تسمع لكلام ذلك النبى أو الحالم ذلك الحلم . لان الرب الهكم يمتحنكم لكى يعلم هل تحبون الرب الهكم من كل قلوبكم ومن كل انفسكم ... وذلك النبى أو الحالم ذلك الحلم يقتل لانه تكلم بالزيغ من وراء الرب .. »

الا أن الحيرة بين أصحاب الآيات والمعجزات لم تبطل فى عهد أنبياء بنى اسرائيل ولابعد ظهور السيد المسيح . فكان الرسل يستدلون بالعجائب والآيات العظيمة على صدقهم وكانت العجائب الكثيرة تجرى على أيدى الرسل كما جاء فى سفر الاعمال ، وكان بولس الرسول يبكت أهل كورنثوس وينعى عليهم سوء معتقدهم بعد العلامات التى صنعها بينهم وصبر عليها بآيات وعجائب وقوات ... وكان الى جانب هذا يحذر الشعب ممن يقتدرون بقوة الشيطان على الآيات والعجائب الكاذبة « بكل خديعة الاثم فى الهالكين »

وجاء فى الرؤيا أن الانبياء الكذبة يقتدرون على ذلك الى آخر الزمان .. « ومن فم النبى الكذاب ثلاثة أرواح نجسة تشبه الضفادع ، فانهم ارواح شياطين صانعة للآيات تخرج

على ملوك العالم وعلى كل المسكونة لتجمعهم لقتال ذلك اليوم العظيم »

ومنذ عرف اسم النبوة بين قبائل اسرائيل ظهر فيهم مئات والوف من هؤلاء المتنبئين لم يكن شأن الاكثرين منهم ليزيد على شأن الدراويش الذين يلوذون باماكن العبادة او اماكن الزيارة فى جميع الأديان ، ولم تكن قبائل البادية ولا اهل القرى ليضيقوا بتكاليف معاشهم لانهم كانوا يقنعون بالقليل من الخبز والادم وبالخشن الرخيص من ملابس الشعر والصوف ، وربما استراح اليهم الدهماء لانهم يفرجون عن صدورهم بالاجتراء على كبرائهم وسرواتهم الذين يستسلمون للطمع والكبرياء ، أو ربما حمد لهم الامهات والآباء أنهم يباركون أطفالهم ويشفون مرضاهم ويفوهون امامهم بأطراف من الاقاويل يفسرون رموزها بما يطيب لهم ولا يشعرون منها برهق شديد لانهم لايحملون مؤنتها اذا أخذت مأخذ الجد والجسامة ، بل ترتفع الى أيدى ولاة الامر ورؤساء الدين والكهان والحكماء فيوفقون بين نقائضها أو يستخدمونها فى تلقين الشعب ما يحبون أن يقولوه بلسان المتنبئين ولا يقولونه بألسنتهم ، خوفا من تبعاته أو من قبيل الحيطة للتراجع اذا حسن لديهم أن يرجعوا عما فرضوه واثبتوه

كان خطب المتنبئين من هذا القبيل ميسورا للقبائل ورؤسائها ، حتى اذا ظهر الانبياء الكبار ظهرت معهم حالة كبرى لا تعرض للقبائل كل يوم ، لانهم لايظهرون الا اذا احتاجت القبائل الى تغيير شامل فى معيشتها واخلاقها ومعاملاتها ، وقد يتقاضاهم الأمر هجرة الى بلد ناء أو قتالا

مع اهل البلد الذى هم فيه أو مع اهل جواره ، وليست خطتهم مع المتنبئين الصغار بمجدية مع هؤلاء الانبياء الكبار دعاة التغيير الشامل واصحاب الحق فى القيادة المطاعة ، وانما الخطة المجدية هنا هى الانقياد للدعوة التى يخشى على من يعصيها ان يهلك بغضب من الله ولو عم الهلاك قومه أجمعين فلا يلبث النبى الكبير أن ينزل فى منزلته بين القوم وأن يتولى بينهم مكان القيادة والتشريع والتعليم ، وهو أرفع مكان يسمو اليه عندهم صاحب حق او صاحب سلطان

دليل الأمان

ان مهمة النبوة كما قام بها هؤلاء الانبياء الكبار هى أعلى ما ارتفع اليه نظر الاقدمين من بنى اسرائيل وغيرهم الى مقام النبوة ، فقد كانوا يلقون عليهم كل معولهم ، ويطلبون منهم مالم يطلبوه قط من ذى ثقة او مقدرة بينهم ، فانتهت هذه المطالب كافة الى غاية واحدة : وهى أن النبى « دليل أمان »

يقبلون منه التعليم والهداية ، ولكنهم يقبلون تعليمه وهدايته لانه دليلهم الى الطريق الامين

ويستمعون له فيما يبلغهم من أوامر الله ونواهيه ،ولكنهم يستمعون له لانه يزحزحهم عن طريق الغضب والنكال

ويجب عليه قبل كل شىء أن يعرف الغيب ليعرف الخطر المتوقع عليهم وعلى أعدائهم الذين يبغضونهم ولا يقدرون على قتالهم وربما طلبوا منه أن يكشف لهم الغيب لما هو أهون من ذلك بكثير : وهو تعريفهم بمكان المال الضائع والحيوان الضال

ولبثت مهمة النبى عندهم معلقة على دلالة الامانة فى

المكان المجهول والزمان المجهول ،ولكنها دلالة الامان من اخطار محسوسة تشبه تلك الاخطار التى تحذرنا منها المراصد ومكاتب التأمين ، فمنها أخطار الخراب واخطار الوباء واخطار المصائب فى الاقارب والاعزاء

ولم يبلغ أحد من انبياء بنى اسرائيل مكانة أعلى من مكانة يعقوب الذى ينسب اليه بنو اسرائيل ، او موسى الذى يدينون له بالشريعة ، ثم صمويل وحزقيال وارميا من أصحاب النبوءات غير المشترعين

وكل هؤلاء كانت مهمة النبوة فيهم مقترنة بالمهمة الاخرى التى لا فكاك منها ، وهى دلالة الامان بالمعنى المتقدم ، اودلالة الامان كما يترقبها المرء من المراصد ومكاتب التأمين ، وان تكن قائمة على الهداية والتعليم

فمن نبوءات يعقوب يفهم انهم كانوا يعولون عليه فى رصد النجوم ، وان كل اسم من اسماء الأبناء يشير الى برج من بروج السماء ، ولا نستقصى الاسماء هنا بل نشير منها الى مثلين يغنيان عن غيرهما ، وهما مثل يهودا وشمعون ولاوى « فيهودا جرو أسد جثا وربض كأسد ولبوة .. لا يزول قضيب من يهودا ومشترع من بين رجليه حتى ياتى شيلون وله يكون خضوع شعوب »

وهذه اشارة الى برج الاسد ، وكان عند البابليين برجان أحدهما برج الاسد أرجولا والآخر ارماح أحد نجوم الدب الاكبر ، وأمام الاسد فى البروج برج يشير الى علامة الملك Seonis Rogulus الذى تخضع له الملوك

أما مثل شمعون ولاوى « فأخوان ، سيوفهما آلات ظلم

فى مجلسهما لا تدخل نفسى .. لانهما فى غضبهما قتلا انسانا وفى رضاهما عرقبا ثورا .. »

وهذه اشارة الى برج التوامين ، وهو برج اله الحرب « زجال » عند البابليين ويصورون احدهما وفى يديه خنجر والآخر فى يديه سلاح شبيه بالمنجل .. وتشير عرقبة الثور الى برج الثور الذى يتعقبه التوامان (١)

وسواء صحت هذه الاشارات الى الابراج والنجوم اوكان فيها مظنة للخطأ والتجوز من المفسرين فالنبوءات عن مصائر الأبناء باسمائهم واضحة لا تحتمل التكذيب

وموسى الكليم طالبه القوم من اسرائيل وغير اسرائيل فى مصر بقدرة على السحر اعظم من قدرة السحرة واصحاب الكهانة والتنجيم ، ثم جاوزوا تكليف الدلالة معه الى تكليفه ان يهيىء لهم الطعام الذى يشتهونه صنوفا بعد صنوف وهم فى واد التيه ، بمأمن من جند فرعون

واحتاج القوم الى علم الغيب فى عهد صمويل ليسألوه عن الماشية الضالة ويأجروه على ردها : « خذ معك واحدا من الغلمان وقم اذهب فتش عن الاتن .. فقال شاول للغلام .. : فماذا نقدم للرجل ؟ لان الخبز قد نفد من أوعيتنا وليس من هدية نقدمها لرجل الله . ماذا معنا ؟ فعاد الغلام يقول : هو ذا يوجد بيدى ربع شاقل فضة »

ولم يحفل بنو اسرائيل بالنبوءات بعد صمويل كما حفلوا بنبوءات أرميا وحزقيل ، وكلها نبوءات عن أخطار الحوادث التى تصيب قومهم وتصيب غيرهم من الاقوام أصحاب

(1) The oracles of Jacob by Eric Burrows.

الدول فى وادى النيل وبين النهرين ، وكان الانباء بالغيب على هذا المثال هو المهمة الاولى من مهام كبار الانبياء ،وربما تحدث عن الغيب أنبياء من غير هذه الطبقة ليذكروا مصائر أفراد معلومين الى جانب مصير الامة كما قال النبى عاموس فى بيت ايل : « أنت تقول لا تتنبأ على اسرائيل ولا تتكلم على بيت اسحاق .. ولذلك قال الرب : ان امراتك تزنى فى المدينة وبنيك وبناتك يسقطون بالسيف وارضك تقسم بالحبل ، وانت تموت فى أرض نجسة ، واسرائيل يسبى سبيا عن أرضه ... »

نبوة الهداية

ختمت ايام هذه النبوءات جميعا فى بنى اسرائيل قبل البعثة الاسلامية بنحو تسعة قرون ، لم تتغير خلالها نظرة الناس عامة وبنى اسرائيل خاصة الى النبوة الدينية ، ولم يفهموا النبوءات الاولى ومالحق بها غير الفهم الذى عهدوه فلما ظهرت النبوة الاسلامية لم تكن تكرارا لتلك النبوءات ولا تطورا فيها بل كانت « تنقية » لها من كل مالصق بها من بقايا الكهانات والدعوات ، وجاءت بمعنى النبوة كما ينبغى أن تكون ونفت عنها ماليس ينبغى لها من شوائب الأوهام ، وأولها انها مرصد للحوادث يحمى الطريق أو مكتب للتأمين يقارض القوم على الامان من الاخطار

ليست مهمة النبى أن يعلم الغيب « انما الغيب لله »

وليس أصدق من نبى يعلم الناس الصدق فيعلمهم مرة بعد مرة أن الغيب من علم الله يكشف عنه مايشاء لمن يشاء

« يسألونك عن الساعة ايان مرساها قل انما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها الا هو »

« قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لا ستكثرت من الخير وما مسنى السوء ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون »

« قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم انى ملك ان أتبع الا ما يوحى الى قل هل يستوى الأعمى والبصير افلا تتفكرون »

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو »

وآية الآيات مسألة « المعجزات » فى الدعوة المحمدية ، فليست المعجزة ممتنعة اذا ارادها خالق الكون كله وخالق السنن التى يجريه عليها ، ولكن المعجزة لاتنفع من لاينفعه عقله ولاتقنع المكابر المبطل اذا أصر على اللجاجة فى باطله :

« .. ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون »

« ويقولون لولا انزل عليه آية من ربه فقل انما الغيب لله فانتظروا انى معكم من المنتظرين »

وقد كان الناس ينظرون الى حوادث الفلك فيحسبونها من الآيات فينهاهم أن يخلطوا بين حوادث الفلك وحوادث الحياة والموت ، وكذلك كسفت الشمس عند موت ابراهيم ابنه عليه السلام فقال الناس انها كسفت لموته فلم يمهلهم أن يسترسلوا فى ظنهم وهو محزون الفؤاد على أحب أبنائه اليه بل انكر عليهم ذلك الظن ورآها فرصة للتعليم ولم يرها فرصة للدعوة فقال : « انما الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحد .. »

وخلصت النبوة كلها لمهمتها الكبرى وهى هداية الضمير الانسانى فى تمام وعيه وادراكه ، فانقطع ما بينها وبين كل صناعة أو حيلة كان يستعان بها قديما على التأثير فى العقول من طريق الحس المخدوع

فليس فى النبوة سحر ولا كهانة ولا هى شعر يزخرفه قائله : « انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون »

ولا بد للمؤرخ أن يتريث عند كل وصف من أوصاف الانبياء الذين كذب بهم أقوامهم ، لانها جمعت كل ما قيل عن الانبياء بين أولئك الاقوام فى العصور المتطاولة . فاذا صح أن جزيرة العرب لم تعرف الانبياء كما عرفهم بنو اسرائيل وان النبوءات كانت وقفا على بنى اسرائيل والمتنبئين غيرهم من الامم ، فمن اين عرفت أحوال الانبياء والمتنبئين التى وصفهم بها المكذبون وقد وردت جميعا فى القرآن الكريم ؟

فمنهم من كان من المعلمين ويرميه مكذبوه بالجنون ! « أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون »

ومنهم من كان يرمى بالسحر أو الجنون : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون »

ومنهم من كانوا يلحقونه بزمرة الشعراء ويرمونه بالجنون: « انهم كانوا اذا قيل لهم لااله الا الله يستكبرون ويقولون اننا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون »

واذا رموه بالسحر وحده قالوا انه السحر الكاذب تمييزا

له من السحر الذى كانوا يعترفون به لكهان معابدهم : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب »

فالتعليم والشعر والسحر والكهانة والغيبوبة ـ كانت كلها سوابق واقعة موصوفة على السنة المكذبين من أقوام الرسل الاقدمين ، ومن وصفها مخترعا فهذا هو العجب العجاب ، ومن وصفها مطلعا فقد استقصاها وزاد عليها مالم يكن منها ، وهو النبوءة الخالصة لهداية الضمير ...

ان المتنبئين من الاقدمين لم يفصلوا النبوة بفاصل حاسم وأن من المتنبئين فى بنى اسرائيل لمن جمع بين الكهـــانة واستطلاع الغيب بالاقتراع فى المحراب ، وعاش القوم بعد انبيائهم بأزمنة طوال وهم لا يذكرون لهم رسالة أكبر من رسالة الانذار بالحوادث والاخطار . فاذا كانت النبوة لم تخلص لمهمتها الكبرى قبل محمد عليه السلام فأين هى الكرامة التى تعلو على هذه الكرامة بين مراتب الانبياء ؟

ان الرسالة المحمدية قد علمت الناس أن يعجبوا للنبوءات اذا لم تكن نبوءة للهداية وللانذار والبشارة : « أكان للناس عجبا أن أوحينا الى رجل منهم أن انذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم .. »

وهذه هى النبوءة المحمدية

وهذه هى النتيجة التى لم تأت من مقدمتها ، أو هذه هى النتيجة التى لم تأت من جميع مقدماتها

وهذه هى آية العمل الالهى بين أعمال الناس

سید الأنبیاء

نشأة الأنبياء

ان وجهة الدعوة النبوية تتبين من نشأة النبى التى اعده الله بها للقيام بتلك الدعوة ، فاذا عرفنا نشأة النبى بين قومه عرفنا رسالته فيهم وعمله فى هدايتهم ، وعرفنا وجهة النبوة من وجهة النبى منذ هيأه الله حيث جعله أهلا لرسالته

ولكن غرائب التاريخ فى امر الانبياء كثيرة ، ومنها هذه الغريبة التى تكاد أن تشمل الانبياء اجمعين ، وهى الجهل التام بتفاصيل نشأتهم بين ذويهم واقوامهم ، فلا يحصى التاريخ شيئا من هذه التفاصيل عن نشأة نبى من كبار الانبياء غير محمد عليه السلام ، وكل من عداه من جلة الانبياء فالعلم بأنباء طفولتهم مستفاد من سيرته بعد النبوة أو مأخوذ ماخذ الاستقراء والاستنباط

وعلى هذا يقل عدد الانبياء الذين نحاول اختيارهم للمقابلة بين نشأتهم ومقاصد دعوتهم ، ولا نستطيع أن نزيد على ثلاثة من كبارهم وهم ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، وعلى بعض الانبياء المذكورين فى العهد القديم فى مناسبات ظهورهم ، وبعض هذه المناسبات يدل على النشأة التى نشأوها والوجهة التى اتجهوا اليها

مهما يكن من بداءة الخليل ابراهيم فالاقوال متواترة

على زعامته لقومه حين هاجر بهم من جنوب العراق الى شماله ومن شماله الى أرض كنعان

كانت مهمته اذن مهمة الزعامة المفروضة على الزعيم ، وكان عليه أن يتولى هدايتهم فى شئون دنياهم وشئون دينهم ، وبخاصة حين يخشى الخطر عليهم من غضب الله وتقمته العاجلة من جراء المخالفة والعصيان

وينبغى ان نذكر هنا أن الوعيد بالغضب الالهى كان خطرا محذورا قريبا ممن تعبدوا لجميع الأرباب فى الديانات الأولى ، وان ايمان الناس بالاله فى العهود الأولى انما كان على أقواه ايمانا بحماية الرب الذى يعبدونه دون سائر الأرباب، فلم يكن لزعيم مؤمن أن يغرر بقومه وهو يعلم سبيل نجاتهم ، وقد كان ابراهيم الخليل زعيم اسرته الذين هاجروا معه ، فكان عليه أن يهديهم الطريق ، وأن يهديهم كل طريق فى حجرة الجسد والروح

وتتفق الأقوال على ان ابراهيم خالف أباه حين انكر ارباب القوم ودعا قومه الى الكفران بالأصنام ، وليس فى هذا ما ينفى زعامته على الذين هاجروا معه من اسرته وذوى قرباه وتابعيه ، فربما كان الخلاف على الاقامة والمصانعة وارضاء ذوى السلطان بشىء من المداراة ، فاستكان الشيخ للواقع ونفر الكهل القوى من هذه الاستكانة ، وقد رأينا ان ثورة النفوس كانت تبلغ غاية مداها فى سلالة ابراهيم حين يؤمرون بعبادة انسان أو اقامة الصنم مقام الاله الذى فى السماء ، فلعل المفترق بين ابراهيم وأبيه انما كان على عبادة جديدة اقحمت على القوم

من هذا القبيل ، فنجا المؤمنون بأنفسهم وتبعوا الخليل فى طريقه ، وأدى لهم أمانة الزعامة بهذه النبوة وبهذه الرسالة فهذه النبوة مهمة زعيم أمين

نبوة موسى

ويريد فرويد أن يجعل قيادة موسى عليه السلام من قبيل هذه القيادة ، ولكنه يذهب بعيدا حين يزعم أن موسى كان من المصريين الذين دانوا بعقيدة « اتون » وكفروا بعقيدة آمون ، فلما انقلب الكهنة على الوحدانية التى جاءت بها عقيدة اتون تحول موسى الى المستضعفين من اليهود فى أرض مصر لينشر بينهم هذه العقيدة فى الاله الواحد ، وأضاف اليها ما تلقاه من العلم بدين « يهوا » حين نجا بنفسه الى صحراء سيناء والتقى فى أرض مدين بنبى الصحراء

الف فرويد المشهور ـ وهو اسرائيلى ـ كتابا خاصا عن موسى والوحدانية Moses and Monotheism حاول فيه جهده أن يرجع بأصل موسى عليه السلام الى الاسرة المصرية المالكة ، وقال ان اسمه نفسه يدل على أصله المصرى لأنه مؤلف من كلمة ابن ومن اللاحقة التى تشبه اللواحق فى أسماء رعموسيس وتحتموسيس وأموسيس ، وقصته فى الماء على رأى فرويد تقابلها فى البابلية قصة سراجون الملك الذى وضعته أمه على حافة النهر وجعلت له مهدا عائما من السلال

وقد توسع فرويد فى تخمينه فقال ان ادوناى التى أطلقها

العبريون على الاله انما هى اتون أو اتوم المصرية ، وأن موسى عليه السلام وفق بين عبادتين ليقنع بنى اسرائيل بدعوة اخناتون ، والى هذا يرجع الاضطراب فى النصوص العبرية القديمة

وليست طريقة فرويد فى تخمين التاريخ الا اسلوبا آخر من طريقته فى كشف العقد النفسية بالتخمين والتأويل تفسيرا لبواطن المريض ، وقد يكون تفسير هذه البواطن قرينة على صحة الرجم بالغيب فى استكشاف الأمراض الباطنية ولكن تخميناته فى سيرة موسى عليه السلام لاتعتمد على قرينة ولا على ظن مقبول ، وليس لها سند من الآثار المصرية أو من الآثار العبرية ، وفى وسع من يشاء أن يخمن مثلها على هذا المنوال ويأتى بعشرين فرضا متضاربا من فروض الخيال

أما سيرة موسى عليه السلام من المراجع الدينية فليس فيها ما يدل على زعامة معترف بها بين بنى اسرائيل ، بل فيها انكار هذه الزعامة بالقول الصريح . لأنه أراد أن يحكم بين خصمين من العبرانيين فقال له أحدهما : « من جعلك رئيسا وقاضيا علينا ؟ العلك تريد قتلى كما قتلت المصرى بالأمس ؟ »

ويرجع برستيد ـ أحد الثقات فى التاريخ المصرى القديم ـ أن موسى قد تخرج من المدارس المصرية الكبرى واطلع على مكنونات علم الكهنة والحكماء ، وكانت له منزلة فاضلة عند ولاة الأمر لعله كان يستخدمها فى الشفاعة لقومه والعلم بنيات الولاة وأوامرهم فيما يمس شئونهم ،

فتعود عقلاؤهم أن يلجأوا اليه ويوسطوه ليستشفعوا به فيما ينوبهم من الظلم وسـوء الحال ، وأصبح له حق الشورى عليهم كلما ارتبط الأمر بمشيئة الدولة ومطالب بنى اسرائيل

وعلى خلاف الصـورة التى تخيلها (ميكال انجلو) للرسول العظيم يؤخذ من اوصافه انه كان وديعا « حييما جدا اكثر من جميع الناس الذين على وجه الارض » كما جاء فى كتاب العدد من العهد القديم ، وانه كان يشكو حبسة فى لسانه فهو يقول عن نفسه كما جاء فى سفر الخروج : « لست أنا صاحب كلام منذ امس ولا أول من امس ولا من حين كلمت عبدك ، بل انا ثقيل الفم واللسان، قال له الرب من صنع للانسان فما ؟ .. أما انا هو الرب . فالآن فاذهب وانا اكون مع فمك واعلمك ما تتكلم به .. »

ولم يخطر له بادىء الرأى أن يقود قومه فى خروجهم من مصر ، ولم يكن على اهبة للرسالة الدينية قبل هجرته الى صحراء سيناء ولقائه فى أرض مدين للنبى العربى الذى يرجح الاكثرون انه هو نبى الله شعيب . ولكنه على مختلف الروايات قد تعلم من ذلك النبى علوما شتى فى شئون التبليغ والقيادة ، ولم يزل يتعلم منه كما جاء فى كتب العهد القديم بعد عودته الى مصر وخروجه منها مع قومه ، وكان يثوب اليه كلما ساورته المخاوف وأوشك ان ييأس من هداية القوم او يضيق ذرعا بما يسومونه من شهوات الطعام ولدد الخصومة والمنافسة بين العشائر على صغائر الأمور

فالسنوات التى قضاها الى جوار نبى مدين كانت هى فترة الاستعداد والرياضة الروحية والتدبر الطويل فيما يمكن عمله لاخراج بنى اسرائيل من مصر واحلالهم حيث حل على مقربة من سيناء وكنعان ، ولا بد انه قد جاس خلال تلك الصحراء ووطىء بقدميه اماكن الرحلة التى لابد منها قبل المقام على استقرار فى ذلك الجوار

ولا شك انه كان يصغى الى نبى مدين فيما يبسطه له من أمر عقيدته وعبادته ، وانه حكى له ما عرفه من العقائد المصرية وعبادات الهياكل والكهان ، ووازن طويلا بين هذه العبادات وعبادة البادية كما تلقاها من أستاذه المدينى ومن هداية الوحى والالهام

فلما عاد الى مصر ليخرج بقومه منها كان هذا الخروج حيلة من لا حيلة له فى البقاء ، ودعاهم اليه باسم الله فاطاعوه بعد لأى ومجاهدة ، ولم يظهر من سلوكهم معه انهم خفوا الى الخروج من مصر طواعية بغير دعوة ملحة واقناع عسير

ولا يفهم من حادث واحد من حوادث الرحلة ان القوم كانوا يؤثرون الفرار حرصا على عقيدة دينية ، فانهم اسفوا على ما تعودوه من المراسم الدينية فى مصر وودوا لو انهم يعودون اليها او يعيدونها منسوخة ممسوخة فى الصحراء ، وخطر لهم ان الاله الذى دعاهم موسى اليه انما غرر بهم ليهلكهم ويعفى على آثارهم ، واحتاجوا فى كل خطوة الى توكيد الوعد بالامان ورغد العيش بعد أعوام التيه والانتظار

فمهمة الرسالة الموسوية بين هذه العوارض الطبيعية

لا تفهم الا على خطة واحدة ترتسم امامنا كما كانت لانها هكذا ينبغى ان تكون

هجر موسى مصر بعد مقتل المصرى وتهديد بنى اسرائيل، قبل غيرهم بالابلاغ عنه ، فضلا عما يخشاه من ملاحقة ولاة الامور

ولم يخطر له قبل تلك الهجرة ان يقنع قومه بالرحيل من الديار المصرية ، فلما اختبر الصحراء وسمع ما سمع من هداية نبى مدين ولمح بعينيه مطارح الرحلة والقرار بين مدين وسهوب سيناء وكنعان ، وطاب له مقام البادية فلم يستعظم المشقة فى دعوة قومه الى مثل هذا المقام ، تدبر الأمر وصحح العزم على التحول بالقوم من مصر الى أرض كنعان ، وصرف الجهد الذى لا جهد بعده فى اقناعهم باسم الاله الذى اختارهم للنجاة ، ولم يزل يحذر عليهم ترك هذا الاله عند أيسر دعوة وبغير اغراء على الترك فى أكثر الأحيان

وهذه أمثلة من تحذيراته تدل على الجهد الجهيد فى تحويل قومه من العبادة التى كانوا عليها الى العبادة التى دعاهم اليها

فمن هذه التحذيرات فى سفر التثنية يقول لهم : « لا تسأل عن آلهتهم قائلا كيف عبد هؤلاء الأمم آلهتهم فأنا أيضا أفعل هكذا . لا تعمل هكذا للرب الهك لأنهم قد عملوا لآلهتهم كل رجس مما يكرهه الرب » .

وحذرهم من الانبياء « فاذا قام فى وسطك نبى أو حالم حلما واعطاك آية أو اعجوبة ولو حدثت الآية أو الاعجوبة

التى كلمك عنها قائلا لتذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها فلا تسمع لكلام ذلك النبى .. »

وحذرهم من الأخ والابن والزوج والصاحب أن يغويهم قائلا : « نذهب ونعبد آلهة اخرى ... فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشفق عينك عليه بل قتلا تقتله »

وحذرهم من المدن التى يدخلونها أن يدعوهم اللئام الى عبادة اربابها : « فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرسها بكل مافيها مع بهائمها بحد السيف »

واذا سمع عن أحد من اسرائيل « انه يذهب ويعبد آلهة اخرى ويسجد لها أو للشمس والقمر أو لكل من جند السماء ... فاخرج ذلك الرجل أو تلك المرأة ... وارجمه بالحجارة حتى يموت »

▭

ولا تتغير هذه الحقيقة بما يقال ـ تأييدا أو تفنيدا ـ لنسبة الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم الى موسى عليه السلام أو نسبة بعضها اليه وبعضها الى الانبياء من تلاميذه وتابعيه ، فان أنبياء بنى اسرائيل جميعا من عهد موسى الى مبعث عيسى عليه السلام لم تكن لهم من مهمة غير هذه المهمة ، وهى تحذير بنى اسرائيل من عبادة اله غير الاله الذى دعاهم اليه صاحب الشعيرة وتبكيتهم كلما انحرفوا عن طريقه واستبدلوا بملته ملة ارباب آخرين ، وهؤلاء الياس وارميا وحزقيل من اشد النعاة على بنى اسرائيل فى هذا الأمر لم يتجرد أحدهم لرسالة غير هذه الرسالة ، ولم يكن هم الياس الا ان يحذرهم عاقبة « اغاظة الرب » اذ كان عمرى قد ملك على اسرائيل ... وعمل

الشر فى عينى الرب وبلغت سيئاته اضعاف سيئات من قبله وسار فى جميع طريق يربعام بن نباط وفى خطيئته التى جعل بها اسرائيل تخطىء لاغاظة الرب بأباطيلهم ... وملك آخاب بن عمرى فاتخذ ابنـــة ملك الصيدونيين زوجة وسار وعبد البعل وسجد له واقام مذبحا له فى بيت البعل الذى بناه فى السامرة »

ولم تكن رسالة ارميا الا كهذه الرسالة حيث انذرهم فى بعض مرائيه قائلا : «... انكم تبخرون للبعل وتسيرون وراء آلهة اخرى لم تعرفوها ... الابناء يلتقطون حطبـا والآباء يوقدون النار والنساء يعجن العجين ليصنعن كعكا لملـــكة السموات ولسكب السكائب لآلهـــة اخرى كى يغيظونى ... » ويمضى النبى منذرا متوعـدا ناعيا على عشائرهم جميعا « انهم ابوا ان يسمعوا كلامى وذهبوا وراء آلهة اخرى ليعبدوها ونقض بيت يهودا وبيت اسرائيـل عهدى الذى قطعته مع آبائهم »

ومثل هذا الوعيد يسمع من كتاب حزقيل حيث يقول لشيوخ اسرائيل : « اننى آخذ بيت اسرائيل بقلوبهم لانهم كلهم قد ارتدوا عنى بأصنامهم ... وان كل انســان من بيت اسرائيل او من الغرباء المتغربين فى اسرائيل يرتد عنى ويصعد أصنامه الى قلبه ... ويجىء الى النبى ليســأله عنى فانى انا الرب أجيبه بنفسى واجعل وجهى ضد ذلك الانسان واجعله آية ومثلا واستأصله من وسط شعبى ... فاذا ضل النبى وتكلم كلاما فانا الرب قد اضللت ذلك النبى وســأمد يدى عليـــه وأبيده من وسط شعبى اسرائيل ... »

فشعب بنى اسرائيل لم يستغن قط عن الاقناع المتتابع للايمان بالاله الواحد الذى دعاهم اليه موسى عليه السلام ، ولم يتحرك من مصر فرارا بعقيدته بل كانت هذه العقيدة هى وسيلة الاقناع لحمله على النجاة بنفسه من عواقب البقاء حيث طاب له البقاء ، ولم يزل فى الطريق يحتاج الى تجديد هذا الاقناع فى كل مرحلة ويحن الى العودة بعد كل نقلة ، وظل كذلك بعد انتهاء أيام التيه وايوائه الى القرار عند أرض كنعان

ونشأة موسى التى عرفناها من مصدرها الذى لا مصدر لنا غيره هى التى تطابق بين هذه النشأة وبين الرسالة الموسوية كما وضحت من الكتب المنسوبة الى موسى والكتب التى نسبت الى الانبياء من بعده ، فخلاصة هذه النشأة ان كليم الله تربى فى مصر وخرج منها خفية بعد مقتل المصرى الذى صرعه موسى انتصارا لرجل من بنى اسرائيل ، ولم يكن خاطر الخروج ببنى اسرائيل قد خطر له أو لأحد من ذوى الزعامة بين عشائر قومه ، ولكنه عاش فى البرية الى جوار الهداية النبوية فى أرض مدين ، وراض نفسه على حياة النسك والاستلهام وهو يفكر فى أسرته وقومه ويزور الارض من حوله ، وتلقى الدعوة الالهية بعد طول التدبر والرياضة فعاد الى مصر لاقناع قومه بدعوته واقناع السادة الحاكمين بها ان تيسر له ذلك دفعا للخطر عن ملته وعقيدته ، ولم يكن يرضيه فيما بدا من طوالع السيرة وخواتيمها أن يبقى شعب بنى اسرائيل حيث استطاب البقاء ، لأنهم رأى لهم مصيرا فى البادية اكرم من هذا المصير ورأى ان العقيدة التى دعاهم

اليها كفيلة بحمايتهم من الضياع بين العشائر والملل فى أرض البادية أو أرض الحضارة

وهذا هو حكم التوفيق بين النشأة والرسالة فى حياة الكليم عليه السلام

وقد عرضت لنا فى خلال هذه السيرة قصة مدين ودعوتها النبوية التى أشارت اليها كتب اسرائيل من بعيد ولم تذكر بشيء من التفصيل فى غير القرآن الكريم ، ولكنها جاءت بالنشأة والرسالة متوافقتين ذلك التوافق الذى يغنى عن كل دليل على صحة الأصل الأصيل

قلنا عن مدن القوافل فى كتابنا عن أبى الأنبياء ابراهيم الخليل : « أما الاسباب السيئة التى أوجبت قيام الدعوات النبوية فى تلك المدن فهى أسباب كثيرة لم تكن توجد يومئذ فى غيرها بهذه القوة وبهذه الكثرة ، واقوى تلك الاسباب مساوىء الاحتكار والاستغلال ، فان تجارة العالم اذا توقفت على مدينة هنا ومدينة هناك صارت فى كل مدينة الى فئة قليلة من السادة وأصحاب اليسار يحتكرون المقايضة والنقل ويبرعون فى أساليب المماكسة ورفع الاسعار وزيادة الضرائب والاجور على الرحال والمطايا وجند الحراسة . ويغتنم هؤلاء المحتكرون فرصتهم فيخدعون البسطاء ويحتالون على الأصول والشرائع ويأخذون باليمين والشمال من الوارد والصادر والغادى والرائح ولا حيلة للتجار فيهم ولا لناقلى التجارة لأنهم قابضون على الزمام وليس فى قدرة دولة أن تحاربهم الا بالاشتباك فى الحرب مع دولة أخرى أو بانفاق أموال

فى الغزو والحصـــــار تزيد على الأموال التى يغتصبها المحتكرون أو يختلسونها . وقد يغلو هؤلاء المحتكرون فى الجشع والتحكم حتى يدفعوا الدول الى المجازفة بالغـارة مرة تريحها من مرات

« كذلك صنع أنتيجون خليفة الاسكندر مع اهم هـذه المدن فى زمانه وهى سلع ـ أى البتراء ـ فجرد عليهـــا حملتـــين ولم يفلح فى غزوها وهاجمها تراجان بقوة كبيرة فدمرها وحول الطريق منها الى بصرى ، ولم يبق من حولها غير مدن صغار »

ان آفة مدين هى آفة هذه المدن على مدرجة الطرق ، وأن قصتها فى القرآن الكريم هى قصة التجارة المحتكرة والعبث بالكيل والميزان وبخس الاسعار والتربص بكل منهج من مناهج الطريق ، وليس أدل على حدوثهـــا من التوافق بين النشأة والرسالة كما جاءت فى مواضع مختلفة من السور واحداها سورة الاعراف

« والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الارض بعـــد اصلاحها ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك

يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا قال أو لو كنا كارهين قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم بعد أن نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها الا أن يشاء الله ربنا وسع كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وانت خير الفاتحين، وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا انكم اذا لخاسرون فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين الذين كذبوا شعيبا كان لم يغنوا فيها . الذين كذبوا شـــعيبا كانوا هم الخاسرين فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين »

فرسالة شعيب عليه السلام انما كانت رسالة خلاص من شرور الاحتكار والخداع فى البيئة التى تعرضت له بحكم موقعها من طرق التجـــارة والمرافق المتبادلة بين الامم ، والاغلب على التقدير ان جزيرة العرب تعرضت لضروب من هذه الآفات وجاءتها الرسالات التى تصلحها فى ابان الحاجة اليها ، ومنها رسالات هود وصالح وذى الكفل واخوانهم من الرسل الصالحين الذين لم تقصص علينا اخبارهم فى كتاب

عيسى عليه السلام

وقد اختتم عهد النبوة والرسالة فى بنى اسرائيل بظهور عيسى عليه السلام ، ولا نعرف عن نشأته فى طفولته غير القليل ولا نعرف شيئا عن ايامه من الثانية عشرة الى الثلاثين

مبعثه الى قومه من بنى اسرائيل ، ولكن نشأة العصر كله من وجهة الاستعداد للنبوة معروفة ببعض التفصيل كما اشرنا الى ذلك فى كتاب عبقرية المسيح

ففى عصر الميلاد : « ترقبت النفوس بشائر الدعوة الالهية من كل جانب كما يترقب الراصدون كوكبا حان موعد طلوعه » وكان موعد الالف الرابعة من تاريخ الخليقة موعدا مقدورا فى عرف الاكثرين لظهور المخلص الموعود

وكان اليهود فى عصر الميـــلاد فريقين : فريق يترقب الخلاص على يد رسول من ذرية داود عليه السلام ، وفريق آخر وهم السامريون بنوا لهم هيكلا خاصا فى جرزيم ... « ومن المحقق ان هؤلاء السامريين كان لهم شأن فى تطور الفكرة المسيحية او فكرة الخلاص المنتظر على يد الرسول الموعود ... وهم ينتسبون الى يعقوب ويدعون انهم دون غيرهم الجديرون باسم الاسرائيليين .. »

وقد تكاثر النذيرون قبيل مولد السيد المسيح وهم المنذورون لصحبة المخلص المنتظر ، لان مولده عليه السلام « وافق نهاية الالف الرابعة من بدء الخليقة على حســاب التقويم العبرى » وهو الموعد الذى كان منتظرا لبعثةالمسيح الموعود ، لانهم كانوا ينتظرونه على راس كل الف سنة ، ومنهم من كان يقول ان اليوم الالهى كان الف سنة كما جاء فى المزامير ، وان عمر الدنيا اسبوع الهى ، تنقضى ستة ايام منه فى العناء والشقاء ويأتى اليوم السابع بعد ذلك كما يأتى يوم السبت للراحة والسكينة ، فيدوم الف سنة كاملة هى فترة الخير والسلام قبل فناء العالم ، ولا يزال الغربيون

يعرفونها باسم الالفية Mellinium ويطلقونها على كل عصر موعود بالسعادة والسلام ، والذين قدروا ان القيامة تقوم بعد سبعة آلاف سنة من بدء الخليقة كانوا يؤجلون قيام ملكوت السماء على الارض الى نهاية الالف السادسة ويومئذ تسود دولة المسيح الموعود ، ولكنهم كانوا كغيرهم فى انتظار رسول من عند الله كلما انتهت الف سنة من بدء الخليقة ، وكانت بداءة الالف الخامسة موعدا منظورا او منذورا يكثر فيه النذيرون ، لعلهم يحسبون من جند الخلاص او لعل واحدا منهم يسعده القدر فيكتب الخلاص على يديه ، والمهم فى امر النذيرين بالنسبة الى السيد المسيح ان النبى يحيى المغتسل ـ يوحنا المعمدان ـ كان علما من اعلامهم المعدودين ، وكان السيد المسيح يعتمد على يديه او يأخذ العهد عليه ، وان بعض المؤرخين يحسب السيد المسيح من النذيرين ويلتبس عليه الامر بين النذيرى والناصرى وهما فى اللفظ العبرى متقاربان ، ومن هؤلاء المؤرخين من يزعم انه لم يكن من الناصرة بل يزعم ان الناصرة لم يكن لها وجود لانها لم تذكر قط فى كتب العهد القديم ، ولكن الارجح فى اعتقادنا ان الناصرة نفسها كانت تسمى نذيرة بمعنى الطليعة عند ما كانت على تخوم الارض التى فتحها العبريون قديما ، وانها كانت مرقبا صالحا للاستطلاع لان التلول التى تحيط بها تكشف جبل الشيخ والكرمل والمرج المعروف باسم مرج ابن عمير ... »

ولا شك ان السيد المسيح قد اتجه بدعوته الى اسرائيل وابتغى منها الهداية « لخراف بيت اسرائيل الضالة » ولكنه عمم الدعوة بعد تكرارها على القوم ولجاجتهم فى الاعراض عنها ،

فوجهها الى كل مستمع لها مقبـــل عليها ، وقال لهم ان العاملين بالخير ذرية لابراهيم الخليل اقرب واوفى ممن يدعون النسبة اليه بالسلالة ، لانهم هم ابناؤه بالروح ، وضرب لهم المثل بوليمة العرس التى لم يحضرها المدعوون اليهـــا ... « فغضب السيد وقال لعبـــده : اذهب عجلا الى طرقات المدينة وازقتها وهات الى بمن تراه من المساكين ، فعاد العبد وقال لسيده : قد فعلت كما امرت ولا يزال فى الرحبة مكان . قال السيد فادع غيرهم من اعطاف الطريق وزواياه حتى يمتلىء بيتى ، فلن يذوق عشائى احد من اولئك الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء »

ولم تكن رسالة السـيد المسيح رســـالة تشريع ، لان الشريعة الدينية كانت فى ايدى احبار الهيكل والشريعـة الدنيوية كانت فى ايدى اتباع قيصر ، ولكنه عليه السلام قد جاء بالفتح المبين الذى لم يسبقه اليه سابق من المرسلين فى تصحيح الشرائع بجملتها ، فقد حطم عنها قيودالنصوص ونقلها الى مقياسها الصحيح وهو مقياس الضمير ، ومن تحطيم النصوص ان يكون ابناء النبى هم اتباعه بالروح وان لم يكونوا من ذريته بالجسد ، ومن تحطيم النصوص كذلك ان يكون الخير فى ضمير الانسان لافى مظهر من مظاهر العالم فان ملك ضميره فقد ملك كل شىء ، وان ضيع ضميره لم يغن عنه العالم بما وسع من اناس وحطام

رسالة النور الجديد

ومما تقدم تنجلى المطابقة بين النشأة والرسالة النبوية عن مقاصد ثلاثة تنطوى فى هذه الرسلات

فمنها الرسالة التى تنطوى فى تكاليف الزعامة ، فتأتى الدعوة الالهية لتمكين زعيم القوم من هدايتهم الروحية لانه مطالب بقيادتهم فى جميع الشئون

ومنها الرسالة التى تقوم على منفعة امة من الامم لحراستها فى وجه الامم الاخرى ، والمثابرة على تذكيرها بحاجتها الى تلك الحراسة

ومنها الرسالة التى ينتظرها القوم تحقيقا لوعود متعاقبة يفسرها كل منهم بما يبتغيه

ثم قامت بعد هذه الرسالات جميعا رسالة محمد عليه السلام ، فلم يستغرقها مقصد من هذه المقاصد ، اذ لم تكن تكاليف زعامة ولا رسالة مقصورة على منفعة امة ، ولا تحقيقا لوعود منتظرة يفسرها كل احد بما يبتغيه

رسالة محمد عليه السلام رسالة الهية قوامها أن الله حق وهدى ، وان الايمان به جل وعلا مطلوب لانه حق وهدى ، هذا الايمان اعلى واقدس من كل ايمان لانه ايمان بالحق والهدى

لم تكن زعامة محمد على قومه مناط تلك الرسالة ، لانه جاء بها بشرا كسائر البشر عليه من امانة الهداية ما على الانسان للانسان زعيما كان او غير زعيم

ولم تكن منفعة الامة العربية مناط تلك الرسالة ، لانها ايمان برب العالمين ، ولا فضل فيها لعربى على اعجمى ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى

ولم تكن مقاضاة لوعود ، لأن الاسلام لم يعد أحدا من العالمين بغير ماوعد به الناس كافة فى جميع البقاع والارضين

نزاهة العبادة

تعود بعض المصابين بداء الهذر من المؤرخين الغربيين ان يتكلموا عن نزاهة العبادة ويذكروا النعيم السماوى كما وصفه الاسلام بين النقائض التى تقدح فى العبادة النزيهة

وما من دين من الاديان خلا من مبدأ الثواب والعقاب ، وما من امة من الامم فى عصر الدعوة الاسلامية كانت صور النعيم السماوى عندها مقصورة على صورة واحدة تؤمن بها ولا تؤمن بغيرها

فليس الايمان بالثواب والعقاب مخلا بنزاهة الدين ، وما من دين يستحق ان يسمى دينا يسوى بين الصالحين والمفسدين ، او يحجر على النفوس ان تطمح الى النعيم الذى ترتضيه

انما الميزان الحق للعبادة النزيهة هو الصفة التى يتصف بها الاله المعبود ومن اجلها يتعبد له المؤمنون

وانزه العبادات — ولا ريب — هى العبادة التى يدين بها المؤمن لله جل وعلا لانه حق وهدى ، ولان الايمان به هو الصدق والصواب

هذه العبادة انزه من العبادة التى تتجه بها الامة الى الله لانه يقوم لها مقام الحارس فى وجه الامم التى تخشاها ، وهى انزه من العبادة التى تقوم على تقاضى الوعود او العبادة التى تقوم على تعلق المرءوس بتكاليف الرئاسة والزعامة

امانة انسان يدعو بها اخوانه فى الانسانية ، ويرفعها مكانا فوق مكان انها نشأت فى جزيرة العرب حيث لا غرابة ان

تكون الرسالة أمانة زعامه او تكون حراسة أمة ذات عصبية او تكون على الاجمال منفعة محدودة فى وجه العالم كما تحد الصحراء ما حولها من البقاع والارضين

سيد المرسلين بحق من جاء بالرسالة المنزهة المثلى ، وهذه هى رسالة محمد بشهادة العقل حين يقابل بين القرائن والامثال ، قبل شهادة المتدين لدينه او المتعصب لعصبته والمقلد لما يمليه التقليد عليه

الوساطة

يقوم الاسلام على خمس فرائض : هى الشهادتان ، والصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج الى بيت الله

ولا تتوقف فريضة من هذه الفرائض الخمس على وساطة بين الخالق والمخلوق ، فحيثما وجد المسلم ففى وسعه ان يؤدى صلاته و « اينما تكونوا فثم وجه الله »

واذا وجبت صلاة الجماعة فكل مسلم يحسن الصلاة يجوز له أن يؤم المصلين حيث اجتمعوا ، ولا يشترط اجتماعهم فى مسجد معلوم

ويحتاج المسلمون الى الحاكم لتوقيت شهر الصيام ، ولكنهم يحتاجون اليه لان وسائل الرصد والتعميم تتيسر له حيث لا تتيسر لكل فرد من أفرادهم ؛ وشأنه فيما عدا ذلك كشأن جميع المسلمين

واذا حج المسلم الى بيت الله فليس فى بيت الله كاهن يقدم له قربانه أو يملى عليه شعائره ، وانما يقرب لنفسه ويقوم بشعائره لنفسه ، فان جهل حكما من احكام الحج فانما يسأل

عنه سؤال المتعلم للمعلم ولا يحتاج فى قبوله الى وساطة من وسيط

ويصح للمسلم ان يؤدى زكاته كما يصح له ان يسلمها لولى الامر ليجمعها ويفرقها على مستحقيها ، ولا عمل له فيها يتمم به الفريضة بعد أدائها

□

هذه الفرائض التى تنزهت عن الوساطة بين الانسان وربه قد تفهم على أنها مصادفات متكررة على صعوبة التكرار والتوافق بين هذه المصادفات ، لولا انها متممة مستوفاة بعقيدة التنزيه التى ارتفعت الى غايتها فى الاسلام فالاله فى العقيدة الاسلامية منزه عن المشابهة والمقاربة والرمز والمحاكاة . وليس كمثله شيء ، ولا وسيلة لانسان الى رؤيته من حيث لايراه الآخرون

ومن العسير على بعض المشتغلين بالمقارنة بين الاديان من الغربيين ان يدينوا للاسلام بهذا التقدم الكبير فى تنزيه العقيدة وتنزيه الفكرة الالهية ، وايسر من ذلك عليهم أن يحسبوه ضرورة من ضرورات النشأة فى الصحراء ، حيث يتعود الحس التجريد ولا يرمز الى الفخامة بروعة البناء

ولكن العقائد الدينية نشأت فى صحراء العرب وفى غيرها من الصحارى قبل الاسلام ، ولم تنشأ فى احدى هذه الصحارى مجردة من شوائب الوثنية والطوطمية وضروب الكهانات والوساطات بين الانسان وطبقات من الارباب دون مقام الاله الواحد المنزه عن الاشباه والنظراء ، وكانت الكعبة فى مكة ملأى بالأصنام والاوثان يتخذونها كما يقولون لتقربهم الى

الله زلفى ولا يحسون انها تناقض طبيعتهم الصحراوية فى التدين والعبادة

ومما فات اصحاب المقارنات ان يذكروه فى هذا الصدد أن الامم التى تدين لسلطان الهياكل وتقدر على تفخيم البناء انما كانت تثوب الى هيكل واحد تتبعه سائر الهياكل ويستأثر كاهنه الأعلى بالوساطة بين اتباعه وبين الله ويضفى من قداسته مايشاء على مايشاء ، فاذا وجد فى الصحراء هيكل متفق عليه بين القبائل فهو أحرى أن يمتاز بالتعظيم والتقديس وأن تحيطه الندرة برعاية خاصة لا تظفر بها المعابد حيث يكثر البناء

▭

وأولى من ذلك بالتنبيه ان الاسلام يحارب سيطرة توجد فى الهياكل وتوجد فى صوامع الصحراء وخيامها وفى التوابيت التى تحمل من مكان الى مكان كتابوت بنى اسرائيل ، لانها سيطرة الكهان والرهبان التى تسلط الناس على رقاب الناس باسم الدين .. « يأيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون اموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » .. وكل مسلم منهى بحكم دينه إن يقتفى آثار الامم الذين حكموا فيهم رؤساء دينهم و « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله »

فليس لرئيس الدين فى الاسلام من فضيلة غير فضيلة العلم والموعظة الحسنة وتنبيه الغافلين من ذوى السلطان : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا

اليهم لعلهم يحذرون » وتلك هى الفريضة العامة التى يندب لها من يقدر عليها من ورثة الانبياء ، وهم : « . . أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »

هذا موقف للانسان فى الكون كله بين يدى الله بغير وساطة ولا فاصل ولا حجاب ، تقدم به الاسلام ولم تمهده له البادية ولا المدينة ، ولكنه نتيجة من تلك النتائج الالهية الكثيرة التى تقصر عنها السوابق والمقدمات .

دین الانسانیۃ

قلنا فى صدر هذه الرسالة اننا نتتبع فيهـــا المقدمات ونقسمها الى قسمين : مقدمات كافية لتفسير النتائج التى تأتى بعدها ، ومقدمات غير كافية لا تفسر جميع النتائجالتى تلحق بها ، وقد تبدو هذه النتائج كأنها منقطعة عن تلك المقدمات او مستغنية عن تفسيرها

ونحن نرى فى فصول هذه الرسالة تفاوتا بين المقدمات فى كفايتها ، ولكنه لم يبلغ قط مبلغ التفاوت فى مقـدمات دين الانسانية ولا فىمقدماتالنبوة كما بسطناها فىموضعها فلو أن جميع الاديان التى عرفهـا النـــاس قبل الدعوة المحمدية وضعت امام الباحثين يومئذ لما استطاعوا ان يستخلصوا منها ظهور دعوة دينية تخاطب امم الانسانية جميعا من جزيرة العرب على الخصوص

ومن الواجب ان نفرق بين دين التوحيد ودين الانسانية فى هذه الخصلة ، فقد وجدت اديان تدعو الامم الى التوحيد قبل دعوة الاسلام ، ولكنها لم تكن تدعوهم لانها تســـوى بينهم وترى لهم حقا واحدا فى عبادتهم ، بل كانت تدعوهم الى عبادة مَلك واحد فى السماء وملك واحد فى الارض ،كأنها مسألة سيادة لا مسألة مساواة

وقد جاءت الدعوة الى التوحيد قبل الاسلام من طريق توحيد الدولة وفرض السلطان الواحد والعبادة الواحدة حيث تبسط سلطانها ، اذ كانت القبيلة القوية تتغلبعلى

القبائل الصغار فتفرض عليها عبادة ربها وطاعة رئيسها ، ثم يتغلب الشعب القوى على الشعوب الصغيرة فيفرض عليها عبادة ربه وطاعة اميره ، ثم تمتد حدود الدولة وراء بلادها فتصبح لها الصفة « العالمية » وتحسب الارض كلها عالما واحدا خاضعا لشريعتها وشرائعها ، فلا يطاع فيه ملك غير ملكها ولا يعبد فيه رب غير ربها ، ولا يأتى هذا التوحيد على سبيل التسوية بين الغالب والمغلوب او على سبيل الهداية والارشاد ، بل يأتى على سبيل القهر والاخضاع وتجريد المغلوب من سادته فى الارض وسادته فى السماء على السواء

وعلى هذه السنة جرى الرومان على اخضاع اليهود حين فرضوا عليهم عبادة « الامبراطور » فى هيكلهم ووضع الشارة الرومانية على محاربيهم ، فلم يفرضوا عليهم ذلك هداية لهم او اعترافا بمساواتهم ، بل فرضوه لاخضاعهم وتحريم كل معبود فى الدولة غير معبودهم ، وهكذا صنع غير الرومان فى مصر وبابل والبلاد الفارسية

ان هذا « التوحيد » وجد قبل الاسلام

ولكنه أبعد شيء عن دين الانسانية الذى نعنيه ، وهو الدين الذى يتجه الى جميع الأمم بدعوة واحدة على سنة المساواة بين الشعوب والاجناس والتماس الهداية للغالب والمغلوب ، فشتان دعوة الى توحيد العبادة تقوم على السيادة والاستعباد ، ودعوة الى توحيد الانسانية فى حقوق واحدة وهداية واحدة وايمان واحد باله لا اله غيره يتساوى الناس بين يديه ولا يتفاوتون بغير الفضل والصلاح

لقد كان الاله عند العبريين يسمى اله اسرائيل ويخص من ابناء ابراهيم ذرية يعقوب بن اسحاق دون سائر العبريين

قال يوشع : « هكذا قال الرب اله اسرائيل »

ويقول الشعب فى كتاب الايام : « الست انت الهنا الذى طردت سكان هذه الارض امام شعبك اسرائيل واعطيتها لنسل ابراهيم خليلك الى الابد .. »

وقال داود فى سفر صمويل الاول : « مبارك الرب اله اسرائيل الذى ارسلك هذا اليوم »

وفى سفر الأيام : « خلصنا يا اله خلاصنا ، واجمعنا وانقذنا من الامم لنحمد اسم قدسك ونتفاخر بتسبحتك .. مبارك الرب اله اسرائيل من الازل الى الابد .. »

ويطمئن بنو اسرائيل الى هذه الحظوة وان لم يستحقوها بولاء او ايمان ، ويتنبأ المتنبئون والانبياء فينعون عليهم خيانة الاله كما جاء فى سفر ارميا : « ان آباءكم قد تركونى وذهبوا وراء آلهة اخرى وعبدوها وسجدوا لها وايای تركوا وشريعتى لم يحفظوها ، وانتم اسأتم فى عملكم أكثر من آبائكم وها انتم ذاهبون كل واحد وراء عناد قلبه الشرير حتى تسمعوا لى .. »

ولكنهم يعودون فيسمعون من صاحب النذير ان الله يريدهم شعبا له : « واجعل عينى عليهم للخير وارجعهم الى هذه الارض وابنيهم ولا اهدمهم واغرسهم ولا اقلعهم واعطيهم قلبا ليعرفونى انى انا الرب فيكونوا لى شعبا وانا اكون لهم الها لانهم يرجعون الى بكل قلوبهم .. »

ودامت هذم العقيدة الى عصر الميلاد فتهيأت العقول لعقيدة ارفع منها وأعدل وأقرب الى المساواة بين الناس ، فكان يحيى المغتسل (يوحنا المعمدان) يزعزع هذه الثقة بالخلاص لغير سبب من عمل او ايمان ، ويخاطب القوم كلما تمادوا فى اغترارهم بالنسبة الى ابراهيم الخليل قائلا : ان الله قادر على ان يخلق لابراهيم ابناء من حجارة الارض ، فان لم يخلصوا فى ايمانهم فلا أمل لهم فى الخلاص

وتحولت الدعوة المسيحية من بنى اسرائيل الى الامم على الرغم من بنى اسرائيل ، لان السيد المسيح شبههم بالمدعوين الذين اقيم لهم العرس فتعللوا بالمعاذير وتخلفوا عن اجابة الدعوة : « فقال هذا انى اشتريت حقلا وعلى ان أخرج فانظره .. وقال ذاك : انى اشتريت ازواجا من البقر وسأمضى لاجربها .. فغضب السيد وقال لعبده : اذهب عجلا الى طرقات المدينة وازقتها وهات الى من تراه من المساكين .. فعاد العبد وقال لسيده : قد فعلت كما أمرت ولا يزال فى الرحبة مكان . قال السيد : فادع غيرهم من أعطاف الطريق وزواياه حتى يمتلىء بيتى فلن يذوق عشائى أحد من أولئك الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء »

ولم تتحول الدعوة المسيحية عن بنى اسرائيل الا بعد اعراضهم عنها واصرارهم على الاعراض فى كل بقعة من بقاع فلسطين توجهت اليها دعوة السيد المسيح وتلاميذه . أما قبل ذلك فكانت الدعوة مقصورة عليهم صريحة فى تقديمهم على غيرهم من الامم : « ثم خرج يسوع من هناك وانصرف الى نواحى صور وصيداء . واذا امرأة كنعانية خارجة من

تلك التخوم صرخت اليه قائلة : ارحمنى يا سيد ! يا ابن داود . ابنتى مجنونة جدا ، فلم يجبها بكلمة . فتقدم اليه تلاميذه وطلبوا اليه قائلين : اصرفها لانها تصيح وراءنا . فاجاب وقال : لم أرسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة فأتت وسجدت له قائلة : يا سيد ! أعنى . . . فأجاب وقال : ليس حسنا ان يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب . . فقالت : نعم يا سيد . والكلاب ايضا تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها . حينئذ أجاب يسوع وقال لها : يا امرأة عظيم ايمانك . ليكن لك ما تريدين . . »

وتحولت دعوة السيد المسيح ودعوة الرسل المسيحيين الى الامم غير مقصورة على بنى اسرائيل ، ولكنهم كانوا يدعون الامم لانهم احق بابراهيم من ابنائه بالجسد ، اذ كان المستجيبون للدعوة ابناء ابراهيم بالروح

▭

واذا روجع تاريخ الاديان قبل الفى سنة لم يوجد منها دين واحد خرجت دعوته من نطاق القومية فعمت شعوب الانسانية على اختلاف اصولها واجناسها

وقد وجدت فى الصين شعوب بلغت فى ذلك العهد مائة مليون او تزيد ، ووجدت فى الهند شعوب تقاربها فى العدد ولم يعرف هؤلاء ولا هؤلاء دعوة الانسانية الى دين واحد بل كانت الصين تدين بعبادة الاسلاف كل بيت له هيكله وعبادته على حدة ، وكانت ديانة الهند ديانة الطبقة الغالبة ينفرد الاحبار بتلاوة اسفارها ويحرمون على الطبقات المحرومة تلاوتها والتعرض لفهمها وتفسيرها ، ويقول جوتاما ريشى فى

بعض كتب الفيدا : « اذا سمع الفيدا رجل من المنبوذين فمن واجب الملك ان يصب الرصاص المذاب فى اذنيه »

هذه مقدمات الدعوات الدينية قبل الدعوة المحمدية بعدة قرون ، وتقف المقدمات عند هذه الدعوات ، ثم يستمع الناس الى دعوة من أعماق جزيرة العرب تنادى بنى الانسان جميعا الى دين واحد واله واحد وحق واحد :

« يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم »

« وما ارسلناك الا كافة للناس »

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين »

ويفصل رسول الدعوة آيات الكتاب الذى أنزل اليه فيقول فى تفسير هذه الآيات : « لا فضل لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى »

ولو لم يكن من سعة المسافة بين المقدمات وهذه النتيجة غير هذا الذى اجملناه لكان فيه الكفاية

لكن العجب منه يتضاعف ويتعاظم حين تأتى النتيجة من أعماق الجزيرة العربية حيث مشتجر الانساب والاعراق على نحو لم يعرف له مثيل بين الامم والعصبيات

وبقية تبقى بعد ذلك لعجب فوق ذلك العجب المتضاعف المتعاظم ، فان الرسول الذى نادى بهذه المساواة بين الاصول والامم لم يكن دون أحد من أبناء الجزيرة كلها حسبا ونسبا من ابويه الشريفين ، بل كان من شرف الابوة فى اللؤابة التى يعترف بها النظراء ويعنو لها المكابرون ...

وهذا الرسول هو الذى يتعلم منه الناس انهم اذا صلحوا واستقاموا : « فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون »

المسئولية الفردية

وللديانة الانسانية مناط واحد هو ضمير كل فرد من أفرادها ، فمالم يكن لهذا الضمير حساب وعليه تبعة فلا ديانة لانسان ولا لجملة الناس

وفكرة التبعة الفردية ، والمسئولية الفردية بسيطة سهلة الفهم تتجدد الحاجة الى تطبيقها كل يوم فى كل بيئة اجتماعية فلو كانت الفكرة تروج بمقدار بساطتها وسهولة فهمها وتجدد الحاجة الى تطبيقها لما خلا المجتمع الانسانى قط من مبدأ المسئولية الفردية منذ أوائل عهد الانسان بالاجتماع

لكن الواقع أن هذه الفكرة البسيطة قد أهملت وظلت مهملة من عهد البداوة الى عهود الحضـــارة الاولى . لان محاسبة الفرد لم يكن لها مرجع الى سلطان واحد . اذ كان الفرد من القبيلة يعتدى على فرد من قبيلة اخرى ويندر أن ترضى قبيلة المعتدى ان تسلمه الى قبيلة المعتدى عليه ، فان لم تسلمه « تضامنت » فى الدفاع عنه ووقعت الحرب بين القبيلتين أو تعرض كل فرد من أفراد قبيلة المعتـــدى لأخذ الثأر منه ، وقد يتوارثون الثأر الى الابناء والاعقاب

فمضى نظام القبيلة على « مسئولية » القبيلة كلها عن جميع أفرادها ، ثم تطورت القبيلة وتألف الشعب من جملة قبائل متعارفة على نظامها القديم . فثبتت على عاداتهـا لصعوبة التغيير فى الجماعات التى تقوم على المحافظة ورعاية المأثورات السلفية ، وبلغ من ثبات هذه العادات ان رومة

ـ التى كانت تسمى أم الشرائع ـ جعلت الاب مسئولا عن الاسرة واباحت له التصرف فى ارواحها واموالها ، وقد ناظرتها فى الشرق شريعة حمورابى فجعلت من حق الرجل الذى تقتل بنته أن يتسلم بنت القاتل ليقتلها كأنها لا تحسب عندهم انسانا مستقلا بحياته

وكانت فى الهند حضارات تأخذ بمبدأ المسئولية الفردية ولكنها ترجع بها الى حياة سابقة متسلسلة من حياة سابقة على مدى الازمنة التى لا تعرف لها بداءةمنذ ازل الآزال ، فهو مولود بجرائره وآثامه وكفارة تلكالجرائر والآثام الى الأجل المقدور ، وليست تبعاته مرهونة بما يعمله بعد ميلاده بل هى سابقة للميلاد لاحقة به آمادا بعد آماد

وعلى هذا تعاقبت الاجيال على اهمال المسئولية الفردية فى أطوار البداوة وأطوار الحضارة ، ولم تعرف حضارةواحدة دانت بهذه المسئولية على النحو الذى نفهمه الآن او على نحو قريب منه غير الحضارة المصرية فى عصور الاسر القديمة ،ثم طواها الزمن وطوى معها شرائعها فلم يبق منها الا اليسير

ولا نطيل فى شرح « المسئوليةالفردية » كما اعتقدها أناس من المتدينين الكتابيين قبل الاسلام ، ولكننا نشير الى طرف منها للابانة عما انتهت اليه واستقرت عليه عند ظهور الدعوة الاسلامية

ففى سفر التكوين ان « نوحا شرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه ، فأبصر حام ابو كنعان عورة ابيه واخبر اخويه خارجا .. فلما استيقظ نوح من خمره علم

مافعل به ابنه الصغير فقال ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لاخوته ... »

وفى سفر يشوع أن « عاخان » سرق من غنائم القتال فى وقعة عاى فانهزم الاسرائيليون ... « وأجاب عاخان يشوع وقال حقا انى قد اخطأت الى الرب اله اسرائيل .. رايت فى الغنيمة رداء شنعاريا نفيسا ومئتى مثقال من الفضة ولسان ذهب وزنه خمسون مثقالا فاشتهيتها واخذتها وهاهى مطمورة فى الارض وسط خيمتى والفضة تحتها ... فأخذ يشوع عاخان بن زارح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله وجميع اسرائيل معه وصعدوا بهم وادى عجور ... فقال يشوع : كيف كدرتنا يكدرك الرب فى هذا اليوم ، فرجمه جميع اسرائيل بالحجارة واحرقوهم بالنار ورموهم بالحجارة واقاموا فوقه رجمة حجارة عظيمة الى هذا اليوم ، فرجع الرب عن حمو غضبه »

▭

وكان القول الشائع أن عصيان آدم جريمة لا يسأل عنها وحده ، بل يسأل عنها كل ولد من ذريته

أما الدعوة الاسلامية فالمسئولية الفردية فيها شىء جديد كل الجدة لم يتطور مما تقدمه ولم يكن نتيجة قط لاحدى هذه المقدمات ، ومعجزة المعجزات فيها انها قامت بالمسئولية الفردية حيث يصدها كل عرف قائم ويعوقها كل نظام مصطلح عليه فى المعاملات والعقوبات

قامت بها فى أعماق الجزيرة العربية ، ولا قانون فيها غير

قانون الثأر ولا شريعة لها غير شريعة القبيلة ، وتعلم الناس لأول مرة فى تاريخ البداوة والحضارة « أن ليس للانسان الا ما سعى » وان جيلا من الاجيال لايؤخذ بجريرة اسلافه ولا يؤخذ خلفاؤه بجريرته : « تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون »

و « كل امرىء بما كسب رهين »

مرحلة شاسعة لم يعمل فيها تاريخ البشرية كله ماعمله الاسلام وحده مبتدئا بغير سابقة ، بل مبتدئا على الرغم من العوائق والموانع والمناقضات

ولم تكن هذه المرحلة الشاسعة نافلة من نوافل الرأى على حواشى العقيدة ، ولكنها هى الفتح الاكبر من فتوح الضمير فى جميع مراحل التاريخ . اذ لا قوام للخلق ولاللدين بغير التبعة ، ولا معنى بغير التبعة لتكليف ولا حساب

الكعبة

ونعود بعد هذه المقدمات جميعا الى حديث الكعبة أو الكعبات التى ثابت جميعا الى قبلة واحدة : هى قبلة الكعبة المكية خاتمة المطاف

يدور البحث مايدور فى تاريخ العرب الدينى ثم يتصل من احدى نواحيه بتلك البيوت التى تعرف ببيوت الله ، أو البيوت الحرام ، ويقصدها الحجيج فى مواسم معلومة يشترك فيها القبائل من سكان البقاع القريبة ، ويتعاهدون على المسالمة فى جوارها

وكان منها فى الجزيرة العربية عدة بيوت مشهورة ، وهى بيت الاقيصر وبيت ذى الخلصة وبيت صنعاء وبيت رضاء وبيت نجران وبيت « مكة » اشهرها وابقاها ، عدا بعض البيوت الصغار التى يعرفها الرحالون ولا تقصد من مكان بعيد

وكان بيت الاقيصر فى مشارف الشام مقصد القبائل من قضاعة ولخم وجذام وعاملة ، يحجون اليه ويحلقون رؤوسهم عنده ويلقون قبضة من الدقيق مع كل شعرة ، وهو الذى عناه زهير بن ابى سلمى بقوله :

حلفت بانصاب الاقيصر جاهدا
وما سحقت فيه المقاديم والقمل !

وبيت « ذى الخلصة » كان يدعى بالكعبة اليمانية فى أرض خثعم بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من

مكة ، وروى البخارى ان النبى عليه الصلاة والسلام أمر بهدمه فهدم ، وان الذين كانوا يسمونه بالكعبة اليمانية كانوا يطلقون اسم الكعبة الشامية على كعبة مكة تمييزا بين الكعبتين

وكان بصنعاء بيت رئام يحجون اليه وينحرون عنده فطلب حبران « يقرآن التوراة » من ملك اليمن ان يأمر بهدمه « لانه شيطان » يفتن الناس ، فأذن لهما فهدماه

وفى بيت رضاء يقول المستوغر بن ربيعة بن كعب حين هدمه بعد الاسلام :

ولقد شددت على رضاء شدة فتركتها قفرا بقاع اسحما
واعان عبد الله فى مكروهها وبمثل عبدالله أغشى المحرما

أما كعبة نجران فقد تعفت آثارها وكشفها الرحالة عبد الله فلبى فى رحلته (٢٥ يونية سنة ١٩٣٦) وهى التى قال فيها الاعشى يخاطب ناقته :

فكعبة نجران حتم عليـ ك حتى تناخى بأبوابها
نزور يزيد وعبد المسـ يح وقيساهمو خير أربابها

ويقول بعض المؤرخين ـ ومنهم ابو المنذر ـ ان هذا البيت وبيت سنداد بين الكوفة والبصرة لم يكونا من بيوت العبادة وانما كانا من المزارات الشريفة التى يذكرها السياح

اسم الكعبة

وقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى فى تفسير اسم الكعبة ، فقال بعضهم انها كانت كلمة رومية أطلقت على

كعبة مكة لتكعيبها ، وان بناء من الروم عمل فى بنائهـــا وهندستها فاستعير اسمها من اللغة الرومية ، وقيل بل كان بناؤها من الحبشة ومنها ــ اى من الحبشة ــ عرف العرب بناء هذه المعابد وأمثالها لانهم امة خيام لم تتأصل فيهم صناعة البناء

وهؤلاء المؤرخون واشباههم يتشبثون بالفرع ويغفلون الأصل بجذوره وجذوعه عليه

فمهما يكن من لغة البناء الرومى أو الحبشى فالقبـائل العربية لم تبن تلك البيوت لان البنـــاء من الروم أو من الحبش ، ولم ترد أن تنشىء لها بيتا يسمى « الـكعبة » أو المـكعبة فى اللغة الرومية ، وانما وجدت الحاجـة الى البيت الحرام ثم وجدت الوسيلة الى تلك الغاية ، ولو لم يبنه احد من الروم او الحبش لبناه احـد من فارس او مصر أو الهند أو غيرها من الامم التى تقدمت فى هـــذه الصناعات . وقد احتاج سليمان بن داود الى بناء هيكله فاستعان بالصناع العاملين فى الحجر والمعدن والحديد من شواطىء البحر الابيض الى جواره فى الشمال ، ولم تقم العقيدة تبعا لاصحاب الصناعة بل كان أصحاب الصناعة جميعا ممن يخالفون تلك العقيدة ويتسمون بسمة الكفر والانكار عند المعتقدين بها

ولم نعرف أن معبدا سمى بشكله أو كان له شكل غير أشكال الابنية التى يغلب عليهـــا التكعيب مع بعض الاستطالة ، وليست مادة « كعب » بالغريبة عن اللغـــة العربية لانهم كانوا يعرفون كعوب الفتاة ويسمون الفتاة كاعبا اذا كعب ثدياها ويلعبـــون بالـكعوب ويتسلحون

بالرماح وهى من القصب او من الاقنية ، فيغلب أن يكون اليونان هم الذين أخذوا من العرب كلمة الكعب وكلمة القناة فتصحفت فى لغتهم الى القانون وهو العصا التى تتخذ للقياس

البيوت الحرام

ومهما يكن من أصول هذه الاسماء والاشكال ، فالأمر الذى لايجوز فيه الشك ان « البيوت الحرام » وجدت فى الجزيرة العربية لانها كانت لازمة ولم توجد فيها العبادات والمعبودات لان أحدا اخترعها لتعبد وتقصد ، وانما كانت العبادات والمعبودات مرعية موروثة ثم أقيم لها المكان الذى تعبد فيه وتقصد من أجله

وقد اجتمع لبيت « مكة » من البيوت الحرام مالم يجتمع لبيت آخر فى أنحاء الجزيرة ، لان مكة كانت ملتقى القوافل بين الجنوب والشمال وبين الشرق والغرب ، وكانت لازمة لمن يحمل تجارة اليمن الى الشام ولمن يعود من الشام بتجارة يحملها الى شواطىء الجنوب ، وكانت القبائل تلوذ منها بمثابة مطروقة تتردد عليها ولم تكن فيها سيادة قاهرة على تلك القبائل فى باديتها أو فى رحلاتها . فليست فى مكة دولة كدولة التبابعة فى اليمن او المناذرة فى الحيرة او الغساسنة فى الشام ، وليس من وراء اصحاب الرئاسة فيها سلطان كسلطان دولة الروم أو دولة فارس أو دولة الحبشة وراء الامارات العربية المتفرقة على الشواطىء أو بين بوادى الصحراء . فهى — أى مكة — مثابة عبادة

وتجارة وليست حوزة ملك يستبد بها صاحب العرش فيها ولا يبالى من عداه ، وهى ان لم تكن كذلك من اقدم أزمانها فقد صارت الى هذه الحـــالة بعـد عهد جرهم والعماليق الذين روى عنهم الرواة انهم كانوا يعشرون كل مادخلها من تجارة

كانت « مكة » عربية لجميع العرب ولم تكن كسروية ولا قيصرية ولا تبعية ولا نجاشية كما عساها كانت تكون لو استقرت على مشارف الشام أو عنـد تخوم الجنوب ، ولهذا تمت لها الخصائص التى كانت لازمة لمن يقصدونها ويجدون فيها من يبادلهم ويبادلونه على حكم المنفعـــة المشتركة لا على حكم القهر والاكراه

ولقد حاولت الدول الـكبرى أن تستغنىعنها بتحويل الطريق منها أو هدم كعبتها فلم تفلح وبقيت لها مكانتها وقداستها كما كانت من اقدم عهودها وهى قديمة سابقة لـكتابة أسفار العهد القديم فىالتوراة ، فانها هى «ميشة» المشار اليها فى سفر التكوين وهى « ميشـــا »التى يقول الرحالة « برتون » انها كانت بيتا مقصودا لعبادة أناس من أبناء الهند ، ويقول الرحالون الشرقيون انهـــا كانت كذلك بيتا مقصودا للصابئين الذين اقاموا فىجنوب العراق قبل الميلاد باكثر من عشرة قرون ، ونرجح نحن ترجيح الظن ان سكان شواطىء الهند وخليج فارس وجدوا فيها سماحة لعبادة أربابهم العلوية وأفلاك السماء كلما ترددوا عليها فى تجارتهم من اقدم عهود التاريخ ، فكان حكمهم فيهـا حكم القبائل البادية التى وجدت فيها محلا لعبادة أوثانها فى مواسم الحج والاحرام

ومن المحاولات التاريخية التى لا شك فى بواعثها محاولة عام الفيل ومحاولة عثمان بن الحويرث ان يدخل مكة فى حوزة الروم وان تستولى دولة الروم من ثم على تجارة المشرق كلها من شواطىء اليمن الى مشارف الشام

فالحبشة كانت تخشى نفوذ الفرس فى اليمن وكانت تلقى من دولة الروم معونة على مقاتلة التبابعة اليمانيين ، وكانت تحذر دولة الروم لانها كانت تملك الوصول الى بلادها من وادى النيل وتملك طريق البحر الاحمر فى نهايته القصوى ، فلما خرجت جيوش الحبشة بقيادة أبرهة وارباط كانت دولة الروم من وراء هذه الغزوة وانتهت بهزيمة ذى نواس ملك اليمن فاقتحم البحر بجواده ليغرق فيه ، وسفر ابرهة عن غايته بعد التمكن من اليمن وشواطئها فبنى « القليس » فى صنعاء ويجوز أن تكون مصحفة من كلمة الكليس اليونانية بمعنى المعبد والمجمع أو من كلمة الكلس بمعنى التكليس او الطلاء . فلما تم بناؤها امر بتحويل الحج اليها وكتب الى النجاشى يقول « انه ليس بمنته حتى يصرف اليها العرب أجمعين » ... فقيل فيما قيل أن أناسا من العرب كانوا يذهبون الى هذه الكعبة الجديدة ليدنسوها وأن سيدا من سادات تميم فعل ذلك وتحدى أربابها أن تصيبه بأذاها ان كانت لها قدرة الأرباب، فكان من جراء ذلك هجوم ابرهة على مكة فى عام الفيل المشهور.

هذه محاولة لاشك فى الغرض منها وهو الاستيلاء على طريق الحجاز من اليمن الى الشام

والمحاولة الأخرى كانت من محاولات السياسة الخفية

لتمليك سيد من العرب على مكةيدين بالولاء لدولةالروم ، فارتضى قيصر لملك مكة رجلا من ساداتها هو عثمان بن الحويرث بن اسد بن عبد العزى ، وكتب له رسائل يبلغها قومه فعاد بها وجمع القوم اليه يرغبهم فى حسن الجزاءمن قيصر وينذرهم بسوء العاقبة فى الشام اذا هم عصوه واهون ماهنالك أن يغلق أبوابها فى وجوههم وهم يذهبون اليها ويعودون منها كل عام . قال : « يا قوم ! ان قيصر قد علمتم امانكم ببلاده وما تصيبون من التجارة فىكنفه ، وقد ملكنى عليكم وانا ابن عمكم واحدكم ، وانما آخذ منكم الجراب من القرظ والعكة من السمن والاوهاب فاجمع ذلك ثم اذهب اليه ، وانا اخاف ان أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام فلا تتجروا به وينقطع مرفقكم منه »

وهذه المحاولة السياسية غرضها كما هو ظاهر كغرض تلك المحاولة العسكرية ، وكلتاهما تثبتشيئا واحدا وهو قيام كعبة الحجاز على كره من ذوى السلطان فى الجنوب ، وان دولة الروم لم تكن تريدها باختيارها وانما كانت مشغولة بها معنية بتحويلها الى حوزتها فلم تستطع أن تنال منها منالها ، واستطاعت « الكعبة » ان تحفظ مكانها على الرغم من خلو مكة منالعروش الغالبة علىأنحاء الجزيرة بجميع أطرافها ، بلاستطاعت ذلك لخلوها منتلك العروش وقيام الأمر فيها على التعميم دون التخصيص وعلى تمثيل جملة العرب بمأثوراتهم ومعبوداتهم دون أن يسخرهم المسخرون من يستبد بهم فريق يسخرهمتسخير السادة للاتباع المكرهين على الطاعة وبذل الاتاوة

قداسة الكعبة

والأساس المهم الذى قامت عليه مكانة البيت المكى أن البيت بجملته كان هو المقصود بالقداسة غير منظور الى الأوثان والأصنام التى اشتمل عليها ، وربما اشتمل على الوثن المعظم يقدسه بعض القبائل وتزدريه قبائل أخرى فلا يغض ذلك من مكانة « البيت » عندالمعظمين والمزدرين، واختلفت الشعائر والدعاوى التى يدعيها كل فريق لصنمه ووثنه ولم تختلف شعائر البيت كما يتولاها سدنته المقيمون الى جواره والمتكفلون بخدمته ، فكانت قداسة البيت هى القداسة التى لا خلاف عليها بين أهل مكة وأهل البادية ، وجاز عندهم ، من ثم ، أن يحكموا بالضلالة على اتباع صنم معلوم ويعطوا البيت غاية حقه من الرعاية والتقدير ...

وعلى هذا كان يتفق فى موسم الحج أن يجتمع حول البيت أناس من العرب يأخذون بأشتات متفرقة من المجوسية واليهودية والمسيحية وعبادات الأمم المختلفة ولا يجتمع منها دين واحد يؤمن به متعبدان على نحو واحد ، وما من كلمة من كلمات الفرائض لم تعرف بين عرب الجاهلية بلفظها وجملة معناها كالصلاة والصوم والزكاة والطهارة ومناطها كلها أنها حسنة عند رب البيت أو عند الله . وجاء فى صحيح مسلم عن عبد الله بن الصامت ان اباذر قال له : « يا ابن اخى ! صليت مرتين قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم . فسأله : فأين كنت توجه ؟ قال : حيث وجهنى الله ! »

وجاء فى الاغانى أن زيد بن عمر بن نفيل كان يستقبل الكعبة فى صلاته ويقول :

لبيك حقا حقا تعبـدا ورقا

. . . . . .

عذت بما عاذ به ابراهم مستقبل الكعبة وهو قائم
يقـول انى لك عان راغم مهما تجشمنى فانى جاشم

وذكر صاحب كتاب حجة الله البالغة انهم كانوا يصومون يوم عاشوراء ، وكان صيامهم من الفجر الى مغرب الشمس ، وكانت لهم بقايا من العبادات التى عرفت بين أهل الكتاب أو لم تكن معروفة على وتيرة واحدة بين أتباع دين من الأديان ، وانما يرغبهم فيها انها اعمال ترضى « الاله » وانهم يعرفون الها أعظم من سائر الآلهة يتوجهون اليه بالدعاء ، وهى حقيقة لا يعتورها الشك لانهم كانوا يسمون « عبد الله » ويلبون فيقولون اللهم لبيك ، ولا يدعون أحدا من الاصنام « رب البيت » فاذا قالوا « رب البيت » أرادوا به ربا فوق جميع الأرباب

اننا فى هذه الرسالة نذكر المقدمات ونقسمها كما قلنا فى مفتتحها الى قسمين : قسم ينقطع دون النتائج التى جاءت بعده ، وقسم يتصل بنتائجه ويشير من مبدأه الى غايته فى مجرى الحوادث ، وليس بين هذه المقدمات المتصلة ماهو أحكم اتصالا بين اوائله وخواتيمه من قيام البيت فى مكة وتوثيقه قبائل العرب على حرمة واحدة

وقد سميت الكعبة « الحمساء » وانتسب اليها «الحمس» وهم طوائف متشددون فى فرائضهم وخلائقهم يدينون أنفسهم بالتقشف والزهد فى مواسم العبادة ، فيقضـون زمنا فى العراء لا يحول بينهم وبين السماء حائل من سقف

او ستار ، ويحرمون على انفسهم فى الاشهر الحرام اكل الاقط والسمن ولبس النسيج من الوبر والشعر ، ولا يجيزون لغيرهم ان يطوف بالبيت فى غير الثياب الاحمسية ويجعلون المطاف بالليل للنساء اذا لم تكن عليهم هذه الثياب

ومن رعاية جوار البيت حلف الفضول الذى تعاهد عليه اناس من علية قريش لينصرن كل مظلوم ويردن الحق الى كل مغصوب وليكونن يدا واحدا فى قتال كل غاصب يلج فى ظلمه وغصبه اعتزازا بماله أو بعصبته وحزبه ، وما من مقدمة للدعوة المحمدية كانت الزم ولا أكرم من هذه المقدمة تيسيرا لاجتماع الكلمة على الخير وتوحيد ابناء الجزيرة العربية فى دعوة واحدة ليست لذى سلطان من ملوك اليمن أو خليج فارس او مشارف الشام الذين يدينون بالولاء للاكاسرة وللقياصرة وللنجاشيين ، بل هى دعوة الله يتلقاها أصحاب التيجان والعروش كما يتلقاها عامة الخلق من عباد الله

أسرة النبي

اجداد النبى

منذ ثبتت للبيت الحرام تلك المكانة العالية بين العرب كافة وجبت له أمانة الخدمة بماله من حق محفوظ وشرف ملحوظ ، ووجب لخدامه السمت الذى يجمل بهذا المقام وهو فوق مقام الرئاسة الدنيوية وعلى مثابة من مقام العبادة والتقديس

ولم يقم بهذه الامانة أحدكما قام بها اجداد النبى عليه السلام من بنى هاشم ، فقد حفظوا حقها وعرفوا سمتها بل طبعوا عليه فطرة بغير كلفة ، وبدا منهم الايمان بها فى مآزق الشدة التى يمتحن فيها الايمان بحب النفس وحب البنين فيغلب الايمان على حب المرء لنفسه وحبه لبنيه

وقد تنافس بنو هاشم وبنو امية على هذا الشرف فأسفرت المنافسة بينهما عن فارق فى الطباع ملحوظ الاثر فى خلائق الاسرتين من أيام الجاهلية الى مابعد الاسلام بعدة قرون ، ومهما تجد من ندين متناظرين فى هاشم وامية الا وجدت بينهما هذا الفارق على نحو من الانحاء

كان بنو هاشم أصحاب عقيدة واريحية ووسامة ، وكان بنو امية اصحاب عمل وحيلة ومظهر مشنوء ، وينعقد الاجماع أو مايشبه الاجماع على اخبار الجاهلية التى تنم

على هذه الخصال فى الاسرتين وبقى الكثير منها الى ما بعد قيام الدولة الاموية فلم يفندوه

ومن هذه الاخبار أخبار المنافرات المتتالية تجمعها منافرة حرب وعبد المطلب الى نفيل جد عمر بن الخطاب اذ يقضى لعبد المطلب ويخاطب حربا قائلا : « أتنافر رجلا هو أطول منك قامة وأعظم منك هامة واوسم منك وسامة واقل منك لامة واكثر منك ولدا واجزل منك صفدا واطول منك مذودا

ابوك معاهر وابوه عف

وفاد الفيل عن بلد حرام

والنسابون يؤيدون ما تواترت به هذه المنافرات ، فيقول دغفل النسابة لمعاوية وقد سأله عن جده امية : « رايته رجلا قصيرا ضريرا يقوده عبده ذكوان » ... قال معاوية « ذلك ابنه ابو عمرو ! » قال دغفل : « ذلك شيء تقولونه انتم اما قريش فلم تكن تعرف الا انه عبده »

ويقول الكلبى فى ابناء عبد المطلب : « كانوا اذا طافوا بالبيت يأخذون البصر »

قلنا فى كتابنا عن ذى النورين عثمان بن عفان : « وقد يتردد المؤرخ فى قبول بعض الروايات المتقدمة على علاتها ، ولكنه لا يحتاج الى المشكوك فيه من تلك الروايات ليعلم هذا الفارق الواضح من خلائق العشيرتين فيما أثر عنهم قبل الاسلام وبعد الاسلام ، ففى حلف الفضول قام بنو هاشم بالأمر وقام به معهم بنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم ، وتخلى عنه بنو عبد شمس فلم يشتركوا فيه ... وخلاصة قصته ان رجلا يمانيا قدم مكة ببضاعة فاشتراها رجل فلواه بحقه

وأبى أن يرد عليه بضاعته ، فقام فى الحجر او فى مكان على شرف وصاح يستغيث ، وكان من أجل ذلك أن تعاهد أناس من بنى هاشم وأحلافهم الا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد الا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم ، وعمدوا الى ماء من زمزم فجعلوه فى جفنة وبعثوا به الى البيت فغسلت به أركانه وشربوه . وقد أبى الامويون وبنو عبد شمس عامة على أحد منهم أن يدخل هذا الحلف فكان أحدهم عتبة بن ربيعة يقول : لو أن رجلا وحده خرج من قومه لخرجت من عبدشمس حتى أدخل حلف الفضول »

وربما خفى السبب الذى يرجع اليه هذا الفارق بين الاسرتين ، فقد يرى بعضهم أنه يرجع الى النسب المدخول وقد رمى الامويون الاوائل بشبهات كثيرة فى عمود النسب وعرض لهم بذلك اناس من ذوى قرباهم فى صدر الاسلام وأشهر ما اشتهر من هذه الشبهات قصة ذكوان الذى يقولون أنه من آبائهم ويقول النسابون أنه عبد مستلحق على غير سنة العرب فى الجاهلية . ومما يعلل به هذا الفارق ان بنى امية كانوا يغيبون عن ديارهم ويعودون اليها فلا يطيب للمقيمين فيها أن يعترفوا لهم بدعوى الزعامة عليهم ، وانهم اكثروا من الرحلة فى بادىء الأمر لحاجتهم وقلة محصولهم من نتاج النعم وارباح التجارة ، وليس بالبعيد أن «المعاهرة» التى أشار اليها المحكمون بينهم وبين الهاشميين قد أورثتهم بعض أمراضها ودست فى اخلاقهم شيئا من خبائثها ، وليس بالبعيد أيضا أن الفارق بين الاسرتين انما كان من قبيل تلك

الفوارق التى نراها بين الاخوة كأنها قسمت بينهم ميراث الاخلاق فذهب أحدهم بالحول وذهب أخوه بالحيلة ، أو ذهب أحدهم بالكرم والاريحية وذهب أخوه بنقائضها من خلال الاثرة والدعوى

وأياما كان سر هذا الفارق البين لقد كان بنو هاشم ـ أسرة النبى ـ أصحاب رئاسة ، وكانت لهم أخلاق رئاسة

عرفوا بالنبل والكرم والهمة والوفاء والعفة ، وبرزت كل خليقة من هذه الخلائق فى حادثة مأثورة مذكورة ، فلم تكن خلائقهم هذه من مناقب الاماديح التى يتبرع بها الشعراء أو من الكلمات التى ترسل ارسالا على الالسنة ولا يراد بها معناها

كان هاشم غياث قومه فى عام المجاعة ، فبذل طعامه لكل نازل بمكة أو وارد عليها ، وسمى بالهاشم من ذلك اليوم لهشمه الثريد ودعوة الجياع الى قصاعه :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه
ورجال مكة مسنتون عجاف

ومما يروى عنه أنه كان أول من سن الرحلتين لقريش : رحلة الصيف ورحلة الشتاء . وحقيقة ذلك فيما يخلص لنا من سوابق الرحلات أنه كان يحمى تلك الرحلات وينظمها ، فنسب اليه أنه أول من سنها

ومكانته فى غير قريش ، وفى مدن التجارة خاصة ، تدل عليها مصاهرته لبنى النجار فى المدينة ، وزواجه من سلمى بنت عمرو التى كانت ـ لشرفها وعزتها ـ تأبى أن تتزوج

الا ان يكون امرها بيدها ، ولو لم يكن لهاشم مقامه فى الحجاز كله لما أصهر الى القوم ولا ارتضى القوم هذه المصاهرة من رجل يزور مدينتهم زيارة الطريق بين مكة والشام . وقد كان المعهود فى بنى عبد مناف أنهم لايقعدون جميعا فى ديارهم وانهم لا تزال لهم همة طامحة فى رحلاتهم واسفارهم ، ومات أكثرهم فى غير وطنهم ، فمات هاشم بغزة فى الشام ومات عبد المطلب برومان الى ناحية من أرض اليمن ، ومات نوفل بسلمان فى العراق

وابن هاشم عبد المطلب سيد قريش غير مدافع ، ويبلغ هذا التقابل بين الاسرتين اقصـــاه فى عهد مناظره حرب ابن امية ، فكان كلاهما نمطا فى بابه من طرفى العقيـــدة والاريحية وطرف السعى والحيلة

وكان عبد المطلب متدينا صادق اليقين ، مؤمنا بمحارم دينه فى الجاهلية لان ثقة الايمان طبيعة فى وجدانه ، وهو أول من حلى الكعبة بالذهب من ماله ، ويعنينا منه انه كان فى الحق نمطا فريدا بين أصحاب الطبائع التى فطرت على الاعتقاد ومناقب النبل والايثار

فلم تكن مناقبه من مناقب الطابع والوتيرة التى تتكرر على صورة واحدة بين المتصفين بها ، ولم يكن كرمه ولا حزمه ولا شجاعته من قبيل الصفات التى تعرف بهذه الاسماء فى جميع الكرماء وذوى الحزم والشجاعة

بل كانت مناقبه مطلبية تدل عليه ولا تصدر من غيره ، وكانت كلها مزيجا من الانفة والرصانة والاستقلال ومواجهة الغيب على ثقة وصبر واناة

وهذه طائفة من اخباره لا نفتقد فى واحـدة منها تلك المناقب المطلبية التى تعز على خيال المتخيل مالم يكن وراءها أصل تحكيه وترجع اليه

وصل ابرهة الحبشى عام الفيل الى أرباض مكة وبعث رجلا من العرب يسمى حناطة يسـأل عن « أمير مكة » ويبلغه ان ابرهة لم يأت لقتالهم وانما أتى لهدم البيت الحرام فان لم يمنعوه فهم فى أمان من حربه . فلما لقى الرسول عبد المطلب وابلغه رسالة ابرهة قال عبـد المطلب : والله ما نريد حربه ، وهذا بيت الله وبيت خليله ابراهيم فان يشأ منع بيته وحرمه وان لم يشأ تخلى عنه ، ووالله ماعندنا من قتال

قال الرسول : انطلق معى الى الملك ، فانطلق معه عبد المطلب الى ان أتى معسكر ابرهة وأدخلوه عليه

يقول الرواة : وكان عبد المطلب رجلا عظيما مهيبا وسيما فنزل ابرهة عن سريره وأجلسه معه وسأله عن طلبته فقال عبد المطلب : الابل التى ساقها جندك !

ويقول الرواة : فهان امر عبد المطلب فى نظر ابرهة وقال له : اتسأل عن البعير وتترك البيت الذى هو دين آبائك ودينك من بعدهم ؟ فقال عبد المطلب : انا رب الابل ، وللبيت رب يحميه . فأمر برد ابل عبد المطلب دون غيرها ، فأخذها عبد المطلب وقلدها النعال وساقها هديا الى الحرم ، ووقف على باب الكعبة يقول :

يارب لا أرجـو لهم سـواكا
يارب فامنـع منهم حماكا

ان عـدو البيت من عاداكا
فامنعهـم أن يخربوا قراكا

هذه هى «المطلبية» التى نعنيها فى خصال هذا الرجل العظيم: لا تهور مع القوة الطاغية، ولكن لا خضوع لها بل وضع لها فى موضعها. وقول يناسب كل مقام، فاذا خامر الظن أحدا لا يفهم معنى هذه الانفة التى تأنف من التهور كما تأنف من الجبن فهناك الجواب الفعال الذى يغنى ما ليس يغنيه المقال: ما سألت عن الابل لاننى أضن بأثمانها فاننى قد وهبتها بعد ذلك للبيت، ولكننى سألت عنها لانها هى موضـــع سؤالى، وتركت السؤال عن البيت لان استجداء الرحمة من ابرهة لبيت الله ينفى الثقة بالبيت وبالله ...

وقد حدث بعد ذلك ما حدث مما لاشك فيه، وهو فتك الجدرى بجنود ابرهة وانهزامه عن البيت وخوفه من ان يتقدم اليه بأذى، وانه لخبر قد يسهل انكاره على المتحذلقة من ادعياء التاريخ الذين يجمعون التمحيص كله فى الانكار، لولا أن حديث الجدرى الذى فشا (فى سنة ٥٦٩) مثبت كما تقدم فى تاريخ بروكوب Procope الوزير البيزنطى المعروف

وخبر آخر من أخبار هذه المناقب المطلبيـــة انه عاش زمنا قليل الولد لم يرزق غير ابنه الحارث الذى كان يكنى به. وعيره عدى بن نوفل بن مناف يوما فقال له: أتستطيل علينا عبد المطلب وانت فذ لا ولد لك؟ فأجابه عبد المطلب جوابه الذى أثر عن ذلك اليوم: ابالمقلة تعيرنى؟! فوالله لئن آتانى الله عشرة من الولد لا نحرن أحدهم عند الكعبة.!

وسنعود الى التعقيب على هذه القصة فى حديث عبد الله

أبى النبى عليه السلام ، ولكننا نجتزىء هنا بأن نقول اننا لا نسقطها لمجرد اختلاف الروايات فيها ، فان أخبار الحاضر تتناقض امامنا ونحن لا ننكر وقوعها لهذا التناقض، وقد اختلفت الرواة فى عبد الله بن عبد المطلب هل هو أصغر ابنائه جميعا أو اصغر ابنائه من أمه ، وهل بلغ ابناؤه العشرة أو حسب منهم ابناء الابناء ، وكل أولئك لا يسقط القصة كما أسلفناه وكما يجىء فى سيرة عبد الله

وملتقى الروايات فى هذه القصة انه أمر بنيه أن يكتب كل منهم اسمه فى قدح وطلب من صاحب القداح ان يضرب عليها فخرج السهم باسم عبد الله . فهم بانفاذ نذره لو لم يتشفع عنده ابنه العباس ورجالات قريش ، وتنادوا بينهم: لئن فعل ذلك لتكونن سنة ولا يزال الرجل يأتى بابنه فيذبحه ، فان يكن فداء فبأموالنا جميعا نفديه

واحتكموا الى عرافة بالحجاز فسألتهم : كم الدية فيكم ؟ قالوا : عشرة من الابل . قالت : قربوا عن ولدكم عشرة من الابل ثم اضربوا عليها وعلى ولدكم ، ثم زيدوا الابل كلما اخطأها السهم حتى يخرج السهم عليها فانحروها عنه ،فقد رضى ربكم ونجا ولدكم »

يقول الرواة : وعادوا الى مكة فقربوا عشرة من الابل وضربوا القداح فخرج القدح على عبد الله ، وجعلوا يزيدون عشرة فعشرة حتى بلغت مائة وقيل ثلثمائة ، فخرج السهم عليها فنحروها وتركوها لا يمنع من لحمها انس ولا وحش ولا طير

ومن اخباره ان قريشا خاصمته فى ماء زمزم بعد ان

احتفرها وعارضوه فى احتفارها ، فاحتكموا الى كاهنة بنى سعد بن تميم بمشارف الشام ، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى عبد مناف وركب من كل قبيلة من قريش نفر يتقدمون ، وفنى ماء عبد المطلب عند بعض المفاوز بين الحجاز والشام فظمىء اصحابه حتى ايقنوا بالهلكة ، وطلبوا الماء ممن معهم من قريش فلم يسقوهم ، فجمع أصحابه وسألهم : ماترون ؟ قالوا : رأينا تبع لرأيك فمرنا بما شئت. قال : فانى أرى أن يحفر كل منا حفرته فيواريه فيها اصحابه اذا مات ، حتى يكون آخركم موتا قد وارى الجميع ، فضيعة رجل واحد خير من ضيعة الركب كله ... ثم بدا له رأى أصوب من هذا الرأى فقال لاصحابه : والله ان القاءنا انفسنا بأيدينا للمـــوت هكذا دون أن نضرب فى الارض ونبتغى لانفسنا لهو العجز . فهلموا نرتحل ، ولم يذهبوا فى طريقهم غير يسير حتى انفجرت عين ماء عذب تحت خف راحلته ، فشربوا وملأوا اسقيتهم ، ثم دعا القبائل من قريش فقال : هلموا الى الماء فقد سقانا الله . فقال اصحابه : لانسقيهم والله لانهم لم يسقونا . قال : نحن اذن مثلهم ، ولم يرضه ان يعمل مثل عملهم وهو أحق بالرجحان عليهم ، وعرف القرشيون له هـذا الحق فكفوا عن منازعته فى ماء زمزم وسلموا له السقاية التى كانوا ينفسونها عليه

ويروى عنه انه كان له جار يهودى يسمى اذينة ، وكان له مال كثير فطمع فيه حرب بن امية واغرى به فتيانا من قومه فقتلوه ، فلم يزل عبد المطلب يستقصى خبره حتى علم باغتياله ومن اغتالوه ، فأبى الا أن يكره حربا على الدية

واخذ منه مائة ناقة اسلمها الى ابن عم اليهودى وارتجع ماله الا شيئا هلك فارتجعه من ماله

وهذه هى المناقب « المخصصة » التى نقول انها لا تجرى مجرى الطابع والوتيرة ولا تغنى عناوينها عن النظر فى ملامح اصحابها ومميزاتهم فى التفكير والعمـــل ، وهى مناقب لا تخترع ولا يضيرها ان يضاف فيها الخبر المخترع الى الخبر الواقع . لان الرواة المخترعين فى هذه الحالة انما ينقلون عن صورة اصيلة تمت فى اذهانهم قبل اختراع اخبارهم عنها ، فحاولوا ان تكون اخبارهم المخترعة مطابقة لحقيقتها

ففى كل خبر من هذه الاخبار « المطلبية » ايمان وحزم ووفاء وجراة على الخطر ولكن فى غير مغالطة ولا اصطناع ، وانما قوام ذلك كله حزم يملك زمامه ويفعل واجبه كما يراه

وادعياء التاريخ خلقاء ان يسألوا انفسهم هنا سؤالين لا يغفلهما احد يفقه معنى تمحيص الخبر ، واولهما فى هذا السياق : لماذا يخترع الرواة هذه الاخبار عن عبد المطلب دون غيره ؟ وثانيهما : لماذا لم يخترعوها ولا اخترعوا امثالها عن حرب بن امية ؟

فاذا كانت صورة الرجل فى الاذهان هى علة الاختراع فهناك حقيقة اذن ماثلة وراء هذه المخترعات ، وهناك دلالة فى اتفاق الاذهان على الاختراع اولى بالتصديق من اتفاقهم على رؤية العيان ، لان رؤية العيان تحتاج بعدها الى البحث عما تدل

وقد اتفقت الروايات كلها على صفات عبد المطلب قبل

الاتفاق على اخباره ، واتفقت الصفات والاخبار معا على ملامح شخصية قوامها الايمان والحزم والوفاء وضبط النفس فى مواجهة القوة والخطر بعزيمة لا تتهور فى غير جدوى ولا تنكص على عقبيها خوفا من فوات الجدوى

وكلها صفات جديرة بآباء الانبياء والمرسلين

عبد المطلب

ولد عبد المطلب فى المدينة وسمى « شيبة » تفاؤلا له بطول العمر فى اسرة لم يكن طول الاعمار من خصائصها ، وتربى بعيدا من آل ابيه فصدق عليه فى طفولته قول القائلين فى عصرنا ان الطفل أبو الرجل . لانه كان يلاعب الصبيان من لداته فيذكرون آباءهم ويفخرون بهم عليه وهو لا يرى اباه بينهم ، وحز ذلك فى نفسه فجعلت امه تسرى عنه وتحدثه عن آل ابيه ومآثرهم فى جوار البيت الحرام ، فطال اشتياقه الى رؤيتهم والاقامة بينهم ، بيد انه احجم عن السفر مع عمه « المطلب » حين قدم الى المدينة لاخذه الى مكة ، وبصر بأمه فى الدار حزينة واجمة تبكى لفراقه وتستمهل عمه عسى ان يبقيه لديها الى عام قابل ، فقهر فى تلك السن الباكرة شوقه الى أهل أبيه وقد عز عليه فى المدينة ان يفاخر بهم لداته بين آبائهم وذويهم ، وقهر فى ابان الطفولة ذلك التطلع الى المجهول وذلك الحنين الى الغرائب وتلك الرغبة فى كل حركة وكل انتقال من مكانه الذى هو فيه ، وقال لعمه بعد ان تهلل لمرآه ورحب بالعودة معه الى قومه : لن اترك امى أو تأذن لى بالسفر معك راضية

وفى سفرته تلك سمى عند مدخل مكة بعبد المطلب لان اهلها راوه مع المطلب لاول مرة فحسبوه عبدا اشتراه ، وجعلوا يدعونه باسم « عبد المطلب » كلما ارادوا ان يميزوه من ابنائه ، فغلبت عليه

وشب الغلام عزوفا ابيا لا يستكين للهضيمة ولا ينزل عن حق له او حق كان لابيه ، فلما اراد عمه نوفل ان يستأثر بمنزلة أبيه هاشم وميراثه لديه تحين الفرصة للسفر الى المدينة وعاد الى مكة بعصبة من اقارب أمه واخواله ، وهم اولو عصبة أشداء ، يشاد بغوثهم فى مدائح الشعراء :

ولـــو بأبى وهب انخت مطيتى
غدت من نداه رحلها غير خائب

فتلقاهم عمه نوفل مرحباودعاهم الى ضيافته فلم يقبلوها او يرضى فتاهم ، فصالحهم على ما يرضيهم ويرضيه

وصح التفاؤل فى عبد المطلب فعـــاش حتى ناهز المائة او جاوزها ومات والنبى عليه السلام دون العاشرة فعهد به الى كفالة عمه أبى طالب شقيق أبيه

وكل ما تفرقت فيه الروايات من أمره قد استقرت على صفة لا تتفرق فيها روايتان ، وهى صدق التدين والايمان بمحارم الدين فى سدانته او فى غير سدانته ، واسم ولد من أولاده عبد العزى الذى اشتهر بعد ذلك باسم أبى لهب لزهرة كانت فى لون وجهه ، ومن حديثه انه كان يتعصب للعزى التى نمى اليها باسمه،وانه زار أحد عبادها المتنسكين لها فى مرض موته فوجده يبكى ، فسأله : ما يبكيك ؟

أمن الموت تبكى ولا مفر منه ؟ قال الرجل : كلا . ولكنى أخاف الا تعبد العزى بعدى !

فقال أبو لهب : والله ما عبدت وانت حى لاجلك ولاتترك بعدك لموتك ، فاطمأن الرجل ومات وهو يقول : الآن علمت ان لى خليفة يرعاها

وكانت العزى بوادى حراص على يمين المصعدالى العراق، وكانت قريش قد حمت لها شعبا يقال له سقام يضاهون به الكعبة ، وهى التى يعنيها ابو جندب الهذلى اذ يقول فى بعض غزله :

لقد حلفت جهـــدا يمينا غليظة
بفرع التى تحمى فروع ســقام

ولها منحر تذبح فيه الذبائح ويقصد اليه الحاج بعد منى كما يقول نهيكة الفزارى يخاطب عامر بن الطفيل :

يا عام لو قدرت عليك رماحنـــا
والراقصـــات الى منى فالغبغب

وشأن هذه القصة فى مناقب عبد المطلب أن التدين لم يكن وسيلة من وسائل الرجل الى طلب السيادة والسدانة ، وانه لم يتدين لانه سادن الكعبة وصاحب المنفعةفى تعظيمها. بل كان يعظم العزى ولا منفعة له فى هذا التعظيم ، وكان الدين عنده ايمانا خالصا من الحيلة ومن مآرب الكهانة

ولا يخفى ان الوراثة فى الطبائع لا فى الشعائر وظواهر العبادة ، فمن كانت عنده عقيدة الايمان بالغيب والعلو بما يؤمن به عن عوارض الاهواء واللذات ، وهان عليه نسيان المنافع والشهوات فى سبيل رضاه ، وطابت نفسه بالفداء

وفرائض الطاعة والوفاء فهذه هى الطبيعة التى تورث على اختلاف الشعائر والعبادات ، ومثلها فى ذلك مثل الشجاعة فى القتال ومثل السخاء بالمال ، فان الابن الذى يرث الشجاعة من أبيه لا يرث منه ميدانه ولا تتوقف شجاعته الموروثة على سلاحه . فقد يحارب الابن بسلاح لم يعرفه أبوه ، وفى ميدان غير ميدانه ، وقد يبذل المال لاقامة مسجد ولم يبذل أبوه المال الا لنحت صنم او ذبح قربان على وثن ، ولا غضاضة على ما ورثه من شجاعة ولا ما ورث من سخاء

وهذه الطبيعة هى التى ينظر اليها الناظر فى مناقب الاسرة الموروثة ، فلو كان عبد المطلب ينافق بالتدين ليخدع به قومه ويتذرع به الى الرئاسة عليهم لما كان هو عبد المطلب الذى تورث منه خصال الصدق والايمان ، ولكنه تورث منه هذه الخصال حين يصدق فى معتقده بالكعبة وبالعزى ، وحين يدين الناس بما يدين به نفسه فى رئاسة هؤلاء الناس

أبو طالب

وكان أبو طالب ـ خليفته فى الوصاية على النبى ـ اشبه ابنائه به فى جميع خصاله ومناقبه

والخلاف كثير فى اسلام ابى طالب ، اذ لم يتفق الرواة على اسلام احد من اعمام النبى غير حمزة والعباس وهما فى مثل سنه ، والعباس يكبرهما بنحو ثلاث سنوات

ولكن لاخلاف على حمايته له وحبه اياه وصبره على عداوة قريش كلها فى سبيل نصرته ورد اذاهم عنه ، وقد

لقى فى ذلك مايطيق وما لا يطيق ، وعظم عليـــه الخطب واشفق من مغبته عليه وعلى ابن أخيه فقال له فى ساعة من أشد ساعات الحرج : « أبق على نفسك يابنى ولا تحملنى من الألم مالا أطيـــق » ... فحزن النبى وحسب أنه سيخذله وقال له وهو يهم بمفارقته : « والله يا عم ! لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن اترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ماتركته »

فلم يبرح النبى غير قليل حتى ناداه عمه وقال له وهو حزين لحزنه : « اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبدا »

وفى رواية ابن اسحاق : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا حضرت الصلاة خرج الى شعاب مكة وخرج معه على بن ابى طالب مستخفيا من أبيه ابى طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها فاذا أمسيا رجعا ، فمكثا كذلك ما شاء الله ان يمكثا ، ثم ان أبا طالب عثر عليهما يوما وهما يصليان ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ابن أخى ! ما هذا الدين الذى اراك تدين به ؟ قال : اى عم . هذا دين الله ودين رسله ودين أبينا ابراهيم ... بعثنى الله به رسولا الى العبـــاد وأنت أى عم أحق من بذلت له النصـــيحة ودعوته الى الهدى واحق من اجابنى اليه واعاننى عليه » ... فقـــال ابو طالب : « أى ابن اخى ! انى لا أستطيع ان أفارق دين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن ــ والله ــ لا يخلص اليك بشىء تكرهه مابقيت »

وقال ابن اسحاق : « وذكروا انه قال لعلى : أى بنى ! ما هذا الدين الذى أنت عليه ! فقال : يا أبت آمنت بالله وبرسول الله ، وصـــدقت بما جاء به ، وصليت معه لله واتبعته ، فزعموا انه قال له : اما انه لم يدعك الى خير ، فالزمه »

وبر أبو طالب بقسمه وحمل السيف فى سبيل نجدته ، وروى القرطبى أنه ناجز أبا جهل وجلة قريش فى مجموعهم يوم اعتدى ابن الزبعرى عليه فى صـــلاته . وكان النبى عليه السلام قد دخل الكعبة ليصلى كعادته فقال أبو جهل : من يقوم الى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته ، فقام ابن الزبعرى فأخذ فرثا ودما فلطخ به وجه النبى ، وانفتل النبى من صلاته وقصد الى عمه فسأله عمه : من فعل هذا بك ؟ قال : عبد الله بن الزبعرى ! فقام ابو طالب ووضع سيفه على عاتقـــه ومشى معه حتى أتى القوم ، فلما راوه قد اقبل جعلوا ينهضون ، فقال أبوطالب : والله لئن قام رجل لجللته بسيفى ، فقعـدوا حتى دنا منهم ، واخـــذ ابو طالب فـرثا ودما فلطخ به وجوههم ولحاهم وانصرف وهو يغلظ لهم القول

وقد تكفل أبو طالب بالنبى فى طفولته الباكرة وصحبه فى غدواته وروحاته خوفا عليه من اساءة تمسه فى غيابه وانتوى السفر الى الشام والنبى فى نحو الثانية عشرة من عمره فاشفق عليه أن يجشمه عناء السفر البعيـد ، ثم تهيأ للرحيل فتعلق به الغلام الودود وبكى لفراقه ، فلم يقو على مفارقته وهو باك ، وقال لصحبه : والله لاخرجن

به معى ولا يفارقنى ولا أفارقه ابدا

ولقد كان الرجل الجليد يذكر اخاه كلما لمحت عيناه الغلام اليتيم فتشرق عيناه بالدموع ، ويقول : ما اشبهه بعبد الله ! وقد كان ابو طالب وعبد الله ـ كما تقدم ـ اخوين شقيقين ، ولم يثبت قط أن هذا العم الكريم تخلى طرفة عين عن ابن اخيه أو أحزنه بكلمة لا ترضيه من طفولته الى ان جهر بدعوته ، ولم يخالف هذا الاجماع من اخبار ابى طالب والنبى أحد من المؤرخين حتى أولئك المفسرين الذين حسبوا أن ابا طالب هو المقصود بما جاء فى القرآن فى سورة الانعام : « وان يروا كل آية لايؤمنوا بها حتى اذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا أساطير الأولين وهم ينهون عنه وينأون عنه ، وان يهلكون الا أنفسهم وما يشعرون »

فقد وهم أولئك المفسرون أن ابا طالب كان هو المقصود بهذه الآيات لانه كان ينهى عن أذى النبى ولايدين بدينه ، ولم يكن ابو طالب ممن يلقون النبى ليجادلوه فيصدق عليه ذلك التفسير ، وأوضح من خطأ هؤلاء المفسرين هنا ظنهم أن ابا طالب مقصود بعد وفاته بقوله تعالى فى سورة القصص : « انك لاتهدى من احببت » ... فان سورة الأنعام قد نزلت بعد سورة القصص كما جاء فى كتاب الاتقان ، فلا هداية ولا جدال ولا نهى عن أذى النبى بعد الوفاة

وعلى الجملة تبدو لنا رعاية أبى طالب لابن أخيه على الرغم من قريش خلائق رحمة ونخوة ووفاء واعتداد

بالجاه والكرامة ، وتبدو لنا من سيرته كلها خلائق أخرى من قبيل هذه الخلائق التى تجمع بين الطيبة والقوة . فاننا نعلم انه كان يلقب بسيد الاباطح ، وانه كان يخرج للتجارة آنة بعد اخرى ، وان اباه عبد المطلب كان على ثراء عظيم وكان سادات بنى امية ينافسونه بالغنى والسخاء فلا يدركونه فى هذا ولا ذاك ، ثم نعلم على كل هذا ان اباطالب قد لقى ضنكا فى شيخوخته وان النبى قد اعانه بكفالة ابنه على وتربيته فى داره ، ونعلم كذلك ان النبى لم يكن على حال من الوفر قبل اشتغاله بتجارة السيدة خديجة ومشاركته فى ربح اموالها ، فمصير ابن عبد المطلب وحفيده الى حال من القلة بعد غنى الجدود والأوائل قد ينبىء عن نصيب الأسرة النبوية من السدانة ومن مناصب الدين فى البيت المعمور ، فاكبر الظن انها كانت مغرما يأخذ من اموالهم ولم تكن مغنما يربحون منه الكثير أو القليل ، ولولا سعة التجارة التى عمل فيها هاشم والمطلب حتى قيل أن احدهما سن لقريش سنة الرحلتين الى الشام واليمن ـ لما وصل اليهما ذلك الثراء المشهور ولا استطاعا النهوض بأعباء الشرف ومناصب الدين

ولقد مر بنا من نجدة ابى طالب لابن اخيه ما تتم به فضيلة النجدة كاملة لهذا الشيخ الكريم ، ولكنها كانت فى الحق نجدة تتسع لكل قاصد ومستجير ولو لم تكن حقوق ابن الأخ على عمه ، فقد استجار به ابو سلمة صاحب بنى مخزوم فاجاره واعلن على الملأ جواره ، فمشى اليه رجال من بنى مخزوم فقالوا : يا ابا طالب ما هذا ؟

منعت منا ابن أخيك محمدا فمالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟ قال : انه استجار بى وهو ابن أختى ، وان أنا لم أمنع ابن أختى لم أمنع ابن أخى . فغضب أبو لهب فى هذه المرة لأخيه الشيخ وثار بهم قائلا : يا معشر قريش ! والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ . ما تزالون تتوائبون عليه فى جواره من بين قومه ، والله لتنتهن عنه او لنقومن معه فى كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد . فخشى زعماء قريش مغبة الوفاق بين الاخوين فى النجدة والجوار ، وكان أبو لهب معهم على رسول الله فى دعوته ، فقالوا : بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة ، انصرفوا راغمين

وحكى عن هشام بن السائب الكلبى عن ابيه فى رواية لا نثبتها ولا ننفيها ان أبا طالب لما أحس الموت « جمع اليه وجوه قريش فأوصاهم فقال : يا معشر قريش !.. انى أوصيكم بمحمد خيرا فانه الامين فى قريش والصديق فى العرب وهو الجامع لكل ما اوصيكم به ، وقد جاء بأمر قبله الجنان وانكره اللسان مخافة الشنآن ، وايم الله كأنى انظر الى صعاليك العرب واهل الوبر والاطراف المستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابا ودورها خرابا وضعفاؤها أربابا واذا أعظمهم عليه أحوجهم اليه وابعدهم منه وأحظاهم عنده ، قد محضته العرب ودادها وأصفت له فؤادها واعطته قيادها . يا معشر قريش ! كونوا له ولاة ولحزبه حماة ، والله لايسلك أحد سبيله الا رشد ، ولا يأخذ بهديه الا سعد ، ولو كان لنفسى

مدة ولاجلى تأخير لكففت عنه الهزاهز ولدفعت عنه الدواهى ... »

وهذه الوصية لا يثبتها القارىء لها على هذا الاسلوب الا أن تكون لسان حال لا لسان مقال ، والا أن يكون ماقيل بعض لفظها وبعض معناها ، ولم يكن كل ما جاء فيها

العباس وحمزة

وعمان آخران غير أبى طالب كانت لهما شهرة وصلة بالدعوة النبوية عرفنا منها بعض ما اتصفا به من صفات وكفايات ، وهما العباس وحمزة ، وكلاهما اخ لعبد الله غير شقيق

فالعباس على صغره تولى السقاية بعد أبيه ، وامتاز بين سادات قريش بالرأى والدهاء وطول الاناة ، وكان له علم بالأنساب وقدرة على تألف الناس ودفع العداوات ، مع هيبة يحسب لها حسابها جلة قريش من هاشميين وأمويين ، وهو جد بنى العباس ومن خلائقه خلائق أبنائه الكفاة الدهاة من كل رئيس مطاع فى هذا البيت الفريد بين بيوتات الهاشميين

وحمزة فارس الفرسان فى خلائق الفروسية كلها من شجاعة وصدق وايمان ودراية بالسيف والخيل . قال ابن اسحاق فى قصة اسلامه : « فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه أن أقبل متوشحا قوسه راجعا من قنص يرميه ويخرج له ، وكان اذا رجع من قنصه لم يصل الى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان اذا فعل ذلك

لم يمر على ناد من قريش الا وقف وسلم وتحدث معهم، وكان أعز فتى فى قريش وأشد شكيمة ، فلما مر بالمولاة ـ مولاة عبد الله بن جدعان ـ قالت له : يا أبا عمارة . لو رأيت مالقى ابن اخيك محمـــد آنفا من ابى الحكم بن هشام !. وجده ها هنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منـه مايكره ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمدصلى الله عليه‌وسلم، فاحتمل حمزة الغضب لمـا أراد الله به من كرامتـــه ، فخرج يسعى ولم يقف على أحد ، معدا لابى جهـل اذا لقيه ان يوقع به . فلما دخل المسجد نظر اليه جالسا فى القوم فاقبل نحوه ، حتى اذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة ، ثم قال : اتشتمه ؟ فانا على دينه أقول ما يقول ، فرد ذلك على ان استطعت . فقامت رجال من بنى مخزوم لينصروا أبا جهل فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة . فانى والله قد سببت محمدا ابن اخيه سبا قبيحا ... »

قال القوم : ما نراك يا حمزة الا قد صبأت

فقال حمزة : وما يمنعنى وقد استبان لى منه ذلك .. انا أشهد انه رسول الله

ومن أعمام رسول الله غير حمزة والعباس رجـلان لم يسلما وهما الزبير وعبد العزى أبو لهب ، وكلاهمـا كان يحتفى بالطفل الصغير ويدلله ويواليه بالسؤال عنه ، وكان الزبير يرقصه بابيات الشعر يرجو له طول العمر والنجابة ، ووهب له أبو لهب جاريتـه ثويبة ترضـــعه وتخدمه فى طفولته ، ولا نعرف من اخبار الزبير ماينبىء عن صـفته

وكفايته ، واما ابو لهب فالمعروف عنه ـ ولا سيما فى علاقاته بابن اخيه بعد الدعوة ـ غير قليل

كان بنو هاشم وبنو المطلب جميعا فى نصرة النبى من آمن منهم به ومن لم يؤمن ماعدا ابا لهب وبنيه ، وفيه نزلت الآيات : « تبت يدا ابى لهب وتب ، ما اغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ، وامراته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد »

وتعليل هذا الشذوذ انه من لوازم الاسر الكبيرة التى لاتشذ منها اسرة ذات خطر فى التاريخ ، فهو هنا القياس المطرد مع طبائع الامور ، كان من علله انه يدعى بعبدالعزى يتعصب لها ويغضب ان يحسب احد امامه ان عبادتها مرهونة بحياته كما تقدم

وكان من علله انفة الكبير أن ينقاد للصغير ، ولا ننس انها انفة لاتستغرب فى عشائر البادية وعشائر الرئاسة منها على التخصيص ، ومن استغربها فليذكر أن العباس وحمزة ـ عمى الرسول اللذين اسلما ـ كانا من لداته عليه السلام الا سنوات ثلاثا أو اربعا تقدم بها العباس فكان لها اثرها فى تاخير اسلامه سنوات

وكان من علل ذلك الشذوذ انه كان على حلف ومشاركة لبيوتات قريش كلها لكثرة ماله وسعة تجارته وأعماله ، وقد قال للنبى فى مجمع الأسرة : هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصباة ، واعلم انه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة ، وانا احق من اخذك ، فحسبك بنو ابيك وان

أقمت عليه فهو ايسر عليهم من ان يثب بك بطون قريش وتمدهم العرب . فما رأيت أحدا جاء على بنى أبيه بشر مما جئتهم به

وفى مجلس آخر قال له ابو طالب : هؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وانما انا أحدهم ، غير انى اسرعهم الى ماتحب ، فامض لما أمرت . فوالله لا أزال أحوطك وامنعك . غير أن نفسى لا تطاوعنى على فراق دين عبد المطلب

قال أبو لهب : هذه والله السوأة . خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم ... وانفض المجلس على غيظ يكظمه أبو لهب وعهد يبرمه أبو طالب ويقول فيه مقسما : والله لنمنعنه ما بقينا

وهذا هو الهوى الذى يزين لصاحبه أن يسوقه مساق الحكمة والحيطة ، فيزعم انه يدفع الشر عن ابن اخيه وعن قومه ويجنبهم ما لا يطيقونه من جهاد العرب ، وانه فى طويته ليأنف ان ينقاد لمن هو اصغر منه ، ويخشى مايصيبه من جراء انقياده لو سلسلت له كبرياؤه

وليس من العلل التى تنسى فى هذا المقام انه كان زوجا لأخت ابى سفيان ، وان ولديه كانا متزوجين لرقية وأم كلثوم كريمتى رسول الله ، وبين الزوجتين والزوجة احن لاتهدأ ولا تزال تتحين الفرصة للوقيعة والتفرقة والعداء

وايا كان ما كان من ابى لهب فهو الشذوذ الذى يستغرب الا يكون وليس بالغريب أن يكون !

واشهر ابناء الأسرة من غير الاعمام ابن عمه الحبيب وابنه بالتربية على بن أبى طالب رضوان الله عليه ، وصفاته

وكفاياته تأخذ من كل سيد من ساداتها بنصيب : شجاعه وطيبة وفهم واقبال على المعرفة وايثار للمعروف ـ

أسرة لاتخرج النبوة وما خرجت قط من خير منها

ونشأة النبى عليه السلام فيها أصدق المقدمات التى قلنا انها مقدمات التمهيد والتحضير

الا انها كسائر المقدمات التى مهدت من جانب لتقيم المصاعب كلها من جانب آخر

أسرة عزيزة الآباء والأجداد ، فخرها بالنسب أعظم من كل فخر ، وسيادتها بالخلائق الموروثةاثبت من كل سيادة . ثم ينشأ لها من بينها نبى ينعى على الآباء والأجداد ماكانوا عليه من ضلالة ، وينكر من الابناء ان يسلكوا مسلكهم ويهيموا على آثارهم ، ويقول لهم كما قال ابراهيم :

« لقد كنتم انتم وآباؤكم فى ضلال مبين »

ويهيب بمن آمن منهم : « يا ايها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم واخوتكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان »

ويدعوهم أن يتبعوا ما أنزل الله لان آباءهم لا يعقلون : « واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا . أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون »

لقد نشأ محمد فى الأسرة التى تعطيه خير ما تعطى الأسر بنيها

ولكنه جاءها بالنبوة التى لا يعطيها غير الله !

وكانت الأسرة تمهيدا له فيما ورث منها

ولكنها وما ورثت من قومها هى عقبة الأرض التى تمهدها السماء

والدا النبى

عبدالله وآمنة

تلك هى الأسرة العامة التى شملت الأجداد والأعمام ، وللنبى صلوات الله عليه ، مع هذه الأسرة العامة ، أسرة خاصة من أبويه الشريفين عبد الله وآمنة

ولم يعقب لنا التاريخ كثيرا من أنباء هذين الأبوين الشريفين ، ولكنه أعقب لنا مافيه الكفاية لبيان أثرهما النفسانى فى وجدان ولدهما العظيم

ندرت فى أبوات العظماء أبوة كأبوة عبد الله بن عبد المطلب ، ونكاد نقول انها مرت بغير نظير فيما وعيناه من تواريخ الأنبياء والهداة من كل قبيل

فتى لم يكد ينجو من الموت ذبيحا حتى مات بعيدا عن زوجه التى فارقها عروسا وعن ولده الذى لم تره عيناه

لكأنما وجد هذا الفتى فى الدنيا ليعقب ذرية تريدها العناية الالهية ، ثم يتركها فى كلاءة تلك العناية لقدر لاتغنى فيه عناية الآباء

وفى تاريخ الأنبياء أب عاش حتى شهد بعثة ابنه فانكرها وتواطأ مع قومه على خذلانها ، فبقيت ذكراه خيبة امل وحيرة لمن يجل الدعوة ويجل ابراهيم

فأما هذه الأبوة فالرحمة فيها تملأ مكان الخيبة ، والبر بالذكرى يملأ مكان الحيرة ويتطلع وراءه الى الأسى على الفقيد والعزاء للوليد الوحيد

وحياة لاتشبع سجل الحوادث والخطوب ، ولكن النفس تشبعها بما يعوضها عن حوادثها وخطوبها حبـــا سابغا وجمالا يفتن فيه الحس والخيال

وهذا الذى صنعته بديهة الحياة الصادقة فلم تدع سيرة عبد الله حتى أودعتها من الخواطر والأمانى ما تزدحم به أعمار طوال ، فما تمناه له المحزونون على صـباه وتقواه يفيض فى جوانب سيرته حتى تمتلىء به مائة حياة

قيل فى بعض ما قيل من هـذه الخواطر والأمانى « انه لمـا انصرف مع أبيـه بعد أن فـداه بنحر مائة من الابل لرؤيا رآها مر على امراة كاهنة متهودة قد قرأت فى الكتب يقال لها فاطمة فقالت له حين نظرت الى وجهه ـ وكان أحسن رجل فى قريش ـ لك مثل الابل التى نحرت عنك وابذل لك نفسى ، لمـا رأت فى وجهه من نور النبوة ورجت أن تحمل بهذا النبى الـكريم صـــلى الله عليـه وسلم ، فأجابها بقوله :

أما الحـــرام فالممـــات دونه
والحـــل لا حل فاســـتبينه
فـكيف بالأمر الذى تبغينـه
يحمى الـكريم عرضه ودينـه

ثم خرج به عبـد المطلب حتى اتى به وهب بن عبـد مناف بن زهرة وهو يومئذ سيد زهرة نســبا وشرفا فزوجه ابنته آمنة وهى يومئذ أفضل امراة من قريش نسبا وموضعا ، فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج من عندها فمر بالمراة التى عرضت عليه ماعرضت

فقال لها : مالك لاتعرضين على اليوم ما عرضت بالأمس ، فقالت فارقك النور الذى كان معك فليس لى بذلك اليوم حاجة . انما أردت ان يكون النور فى فأبى الله الا أن يجعله حيث شاء »

وفى أسانيد ابن هشام أن عبدالله « انما دخل على امراة كانت له مع آمنة بنت وهب ، وقد عمل فى طين له وبه آثار من الطين فدعاها فابطأت عليه لما رات به من اثر الطين ، فخرج من عندها فتوضأ وغسل ما كان به ، ثم خرج عائدا الى آمنة فمر بامراته الأولى فدعته فلم يجبها وعمد الى آمنة فحملت بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ثم مر بامراته تلك ... فقالت له : مررت بى وبين عينيك غرة بيضاء فدعوتك فابيت »

قال اسحاق بن يسار صاحب الخبر : فزعموا أن امراته تلك كانت تحدث انه مر بها وبين عينيه غرة مثل غرة الفرس . قالت : فدعوته رجاء ان تكون لى ، فأبى على ، ودخل على آمنة فحملت برسول الله ... »

وجاء فى غير خبر ان فتيات مكة ذهبت بهن الحسرة لزواج عبد الله من آمنة ، وكانت كل فتاة منهن تتمناه زوجا لها لجماله وتحدث الناس بفدائه

وفى كل هذه الاخبار قسط من الصحة لانهمله ولانسوى بين رواية السير له وبين خلوها منه ، فان مجيئه فى السير يثبت لنا معنى صادق الدلالة وان يكن غير معناه المقصود : يثبت لنا لونا من شعور الناس بصاحب السيرة ولونا من تعبيرهم عن ذلك الشعور ، ومن كان هذا المعنى لغوا عنده فخير له أن يتجنب السير والتواريخ

واما حكم الواقع على حدوث الخبر فحسبنا فيه حكم القرآن الكريم الذى يبطل علم الكهان بالغيب كما ينكره على أعوانهم من الجان ، وفى سورة سبأ عن سليمان بن داود عليهما السلام : « فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته الا دابة الارض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين »

والقرآن الكريم يقول فى غير موضع أنه لا يعلم الغيب الا الله ، ويقول بلسان النبى : ولا أعلم الغيب

فلا كاهن يعلم من أمر الدنياسرا من أسرار الغيب فضلا عن أمر النبوة والرسالة ، والكاهنة التى تريد أن تحمل بنبى لا يخطر لها أن تحمل به سفاحا فيقول لها عبدالله :

أما الحرام فالممات دونه
والحل لا حل فاستبينه

واما ان تكون زوجة ثم لا ترى من زوجها تلك الغرة قبل ذهابها ثم تأبى معاشرته بعد ذهابها ـ فليس مما يجوز تصديقه من شئون الزواج

فالقصة كلها ، وما شابهها من القصص ، رغوة وزبد وزبدتها جمال عبد الله وأسى النفوس لما فات ذلك الجمال فى عنفوان صباه

ولا تكران لما كان عليه عبد الله من الوسامة والوضاءة وغضارة الشباب سواء حفظت لنا السيرة قصة من تلك القصص أو جاءتنا عفلا منها ، فقد حفظت لنا رؤية العيان انه كان واخوته يطوفون بالكعبة مع أبيهم فيأخذون

الابصار ، ولم يصف الواصفون بنى هاشم بدمامة أو معابة فى الخلق والصورة ، حتى فيما وصفهم به الشانئون وطلاب العيوب

▭

وفيما وصل الينا من سيرته قصة غير تلك القصص لا قبل للمبالغة وحدها بأن تخلقها ، لانها تحتاج الى افتنان فى وصفها وتحتاج ـ مع الافتنان ـ الى مصلحة مفروضة تدعو الى اختلاقها ، أو علة من العلل المعروفة تفسر لنا ذلك الاختلاق

وتلك هى قصة النذر التى أوردناها فى الكلام على الكعبة ، وهى تقوم بديوان جامع من القصص للتعريف بخلائق عبد الله

وليس يكفى فى معيار النقد التاريخى أن يكون اختراع القصة ممكنا ليقال انها مخترعة ، فان اتهام كل خبر بالاختراع لانه يجوز ان يخترع يسقط أخبار التاريخ كله فى الزمن القديم وفى الزمن الحديث ، وانما يظن الاختراع بالخبر لمسوغ يدعو الى الشك فيه ولمصلحة توجب اختراعه وتضطرنا اضطرارا الى نفيه على ثقة أو على ترجيح

وهذه القصة بعينها ينبغى قبل نفيها أن نعرف مصلحة المسلم أو الجاهلى فى اختراعها والصاقها بعبد المطلب وعبد الله ، فقد قيل انها اخترعت لتصوير عبد الله أبى النبى فى صورة الذبيح اسماعيل ، وقيل انها لم تظهر فى الجاهلية قبل البعثة الاسلامية

فهل من مصلحة مسلم أن يختلق القصة ليقول ان

جد النبى أوشك أن يذبح اباه قربانا للاصنام ؟

وهل من مصلحة جاهلى أن يبدع الافتنان فى القصة وفى وسيلة الخلاص من الفداء لينكر على سدنة الكعبة قدرتهم على استخبار أربابها ويرجع بالفضل فى الوسيلة والاستخبار الى كاهنة خيبرية تفتى لهم فى شؤن عباداتهم وأبنائهم حيث يعجزون عن الفتيا وهم مفتقرون اليها ؟

ولم هذا التخصيص بعبد المطلب وعبدالله ؟ ومن الذى كان عنده من قدرة الافتنان فى القصص مثل هذه القدرة ثم خفى امره ولم تأت منه افنونة مثلها فى زمانها ؟

وهناك مسوغ آخر للظن يبدر الى الذهن اذا كانت هذه القصة قد حدثت لاحد قبل عصر عبد المطلب ثم نقلت اليه ، كما حدث كثيرا فى القصص المتكررة التى تروى عن أناس متفرقين ، ولكن هذه القصة بذاتها لم ترد بها الرواية فى بلاد العرب أو غيرها عن أحد غير عبد الله ، وليست هى مما يوضع فى بلاد لم تعهد السهام وضرب القداح والفداء بالابل والتقرب الى كعبة تجمع الاصنام من هبل الى نائلة الى اساف . فلماذا اخترعت فى بلاد العرب وخص عبد الله باختراعها عليه ؟

ان لم تكن هناك شبهة من هذه الشبهات ومسوغ من هذه المسوغات فقبول القصة أولى من رفضها ، وتأليفها على هذا الافتنان لغير قصد معلوم أصعب فى وقوعها ، وقد تساق فى معرض ترجيحها وتداولها الى منتصف القرن الاول للهجرة رواية للطبرى يقول فيها بعد سند

متصل : « ان ابن عباس سالته امراةانها نذرت ذبح ولدها عند الكعبة فأمرها بذبح مائة من الابل وذكر لها هذه القصة عن عبد المطلب ، وسالت عبد الله بن عمر فلم يفتها بشيء بل توقف ، فبلغ ذلك مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة فقال انهما لم يصيبا الفتيا ، ثم امر المراة ان تعمل ما استطاعت من خير ونهاها عن ذبح ولدها ولم يأمرها بذبح الابل ، واخذ الناس بقول مروان »

والحق بين رفض القصة وقبولها أنه لا موجب لرفضها وليس فى قبولها ما يخالف مألوفا من مألوفات زماننا . وقد كان نذر عبد المطلب طلبا عزيزا من الاله يبذل له فديته ، وكان الوفاء من فضائله المأثورة وكان مع الوفاء بالنذر ايمان بسوء العقبى وحذر من ان يصيب الجزاء ابناءه جميعا ، فليس فى هذا الوفاء خليقة تختلق لانها فوق طاقة الانسان

ومن ارتضى قصة النذر هذه فنصيب عبد الله عنده أعظم من نصيب أبيه ، لانه سلم حياته فدية لاخوته ولم ينكص عن طاعة أب وطاعة رب . ومن يفعل ذلك ينبىء عن ايمان قوى بالواجب واقدام على الموت فى ريعان الشباب ، وقد كان له أن يتمحل المعاذير فلا تعوزه الحيلة ، فكأى من رجل لا ينكر الدين ولا يمرق منه اذا سامه الدين مايعز عليه لم تتعذر عليه الحجة للتحلل من فرائضه والاجتراء على اوامره ونواهيه

على أن الملاحظة التى تستوقف النظر من أمر هذه الاسرة القوية المباركة ان اخبارها المتناثرة التى ترسل

ارسالا فى المناسبات المتفرقة ادل عليها من الأخبار التى تنتظم فى مناسبة واحدة وتحتمل مظنة الوضع والتأليف. ومهما تتناثر الاخبار عن احوالها فى الجاهلية تخلص بنا الى خصلة ملحوظة فى جميع هذه الاخبار وهى «النظام» الذى تتوخاه فى معاملاتها وعلاقات أفرادها على البديهة بغير تدبير مقصود

فمن هنا كلمة ومن هناك خبر ومن جوانب شتى أحاديث وروايات وكلها ينطبع بهذا الطابع بغير شذوذ حتى حين ينتظر الشذوذ ولا يستغرب ، فأبو لهب نفسه — وهو الخارج على اجماع الاسرة — يأبى فى مجلس قريش أن يسام أخوه الكبير — أبو طالب — مالم يتعوده من الطاعة والتوقير ، ويحضر مجلس الاسرة فلا يزيد على كلمة يقولها حين يسمع من أخيه أنه ينصر محمدا ولا يستمع فيه للامة بعيد أو قريب ، ثم ينصرف من المجلس وهو كظيم

أما فى سائر مجامع الأسرة فالطاعة والتوقير سنة لا يخالفها صغار الأسرة فى مجالس كبارها ، فاذا جلس عميدها جلسوا وراءه وصمتوا فى حضرته لا يبدأون بالكلام الا أن يدعوهم اليه . ومن هنا عجبهم أن يقبل الغلام اليتيم الى مجلس جده فيقصد اليه ويجلس الى جواره ، وهم مع علمهم باشفاق الجد عليه وتدليله اياه يستدعونه اليهم ليجلس معهم حتى يأمرهم الجد فيسكتوا عنه وهم لا يقلون اشفاقا عليه

ومن نظام الاسرة ان عبد الله خرج بعد زواجه مع اول

قافلة حان موعدها ولم يتخلف عامه ذاك الى عام قابل ، وهو لما يفرغ من عرسه الذى كان خليقا ان يطيله تلهف ابيه وآله على حياته بعد اليأس منه فى قصة النذر المشهور ، فخرج مع القافلة ولما ينقض على زفافه اسبوعان على ارجح الاقوال

ولا شيء أشبه بالواقع المنظور فى قصة زواج عبدالله بعد الوفاء بنذره واستبقاء حياته ، فان اباه — لا جرم — قد امتلأت نفسه زمنا بشبح الموت يطيف بولده الحبيب اليه ، فليس أقرب الى خاطره من تعويض ذلك الشعور الجاثم على صدره بالاطمئنان على بقاء فتاه والغبطة بدوامه ودوام ذريته من بعده ، ولا سيما الدوام بعد النذر الذى كان مبعثه تعيير الشانئين بقلة الذرية وابتئاس الأب خوفا من انقطاع العقب مع ولد وحيد

واختار الأب زوجة عبـــدالله من بنى زهرة أحلاف بنى هاشم والمطلب فى كل خلاف : زوجه آمنة بنت وهب أعرق بنى زهرة نسبا وأكرمها محتدا ومدره العشيرة كلها فى مجامع قريش ، وينتهى نسبه لابيه وامه الى عبدمناف ، وقد فخر رسول الله بانتسابه الى هـذه الامومة فقال : « أنا ابن العواتك من سليم »

روى الامام أبو نعيم الحافظ فى كتاب دلائل النبوة بعد اسناد متصل : « ان عبـد المطلب قدم اليمن فى رحـلة الشتاء فنزل على حبر من اليهود . قال : فقال لى رجل من أهل الديور — يعنى أهل الكتاب — يا عبـد المطلب ! أتأذن لى أن انظر الى بعضك ؟ قال : نعم اذا لم يكن عورة ،

قال : ففتح احدى منخرى فنظر فيه ثم نظر فى الآخر فقال : أشهد أن فى احدى يديك ملكا وفى الاخرى نبوة ، وانا نجد ذلك فى بنى زهرة فكيف ذلك ؟ قلت لا أدرى ! قال هل لك من شاغة ؟ قلت وما الشاغة ؟ قال زوجة ! قلت : أما اليوم فلا . قال فاذا رجعت فتزوج فيهم . فرجع عبد المطلب فتزوج هالة بنت وهب بن مناف بن زهرة فولدت حمزة وصفية ، ثم تزوج عبدالله بن عبد المطلب آمنة بنت وهب فولدت رسول الله ، فقالت قريش حين تزوج عبدالله بآمنة فلج ـ أى فاز ـ وغلب عبدالله على أبيه »

وهذا مثل من الأخبار التى لا تثبت على النظر وتبنى على حقيقة ثابتة وهى اتصال النسب بين آل عبدالمطلب وآل وهب ، واتصال البيتين فى الحياة الزوجية لما كان من الاتصال بينهما فى الحياة العامة ، ولم يأت هذا الاتصال القديم بنبوءة من ناسك فى اليمن تنكشف من النظر فى منخرين

▭

انتقل عبد الله بعروسه من حى وهب الى حى عبد المطلب بعد أيام العرس ، فلم يطل فيه البقاء الا ريثما اذن مؤذن القافلة بالرحيل

ولم يعد من رحلته تلك الى داره . فانها كانت الرحلة الأخيرة لكل راحل أو قاعد فى هذه الحياة : رحلة من ظاهر الأرض الى جوف الضريح

وولد النبى عليه السلام بعد موت أبيه على أشـــهر الروايات ، فأرضعته أمه وارضعته معها ثويبة جاريةعمه ابى لهب ، ثم عهد به الى حليمة بنت ذؤيب تستتم رضاعه فى بادية قومها بنى سعد علىسنة العلية من أشرافمكة ، يبتغون النشأة السليمة واللغة الصحيحة بعيدا منإخلاط مكة وأهوائها . ولم يكن الطفل اليتيم على يسار لان أباه مات فى مقتبل الشباب ، ولـكن أسرة أبيـــه وأسرة أمه تكفلتا بنشأته كما ينشأ أبناء السراة من قريش ، فأخذته المرضعة بعد تردد ، ثم اعادته الى مكةقبل أن يبلغ الثالثة، لانها سمعت من ابنها أن أخاه القرشى قد صرع وهومعه ، وأن رجلين أخذاه فاذا هما يشقانبطنه ولا يزالانيسوطانه، فلما ذهبت اليه حيث تركه ابنهـــا وجدته قائما ممتقع الوجه ، فبادرت به الى مكة مخافة عليه ، وطلبت اليها أمه أن تعود به الى البادية تخشى على الطفـــل من هواء البلد ولا تخشى عليه من ذلك الخطر الذى خشيتهالمرضع الرؤوم ، بعدما سمعته من ابنها ورأته من امتقاع لون الوليد القرشى وقيامه منفردا فى الخلاء ، فلما عادت به الىالبادية أتم رضاعه فيها ولبث معها الى الخامسة أو قبلها بقليل ، وتكلم وجرى لسانه بالعربية الفصحى وهو بينبنىسعد ، فذاك فخره بعد النبوة اذ يعجب الصحابة من فصاحته فلا يرى عليه السلام عجبا فى فصاحة عربى نشأ فى بنى سعد وتربى فى الذؤابة من قريش

ولم يكد الصبى يطمئن الى جوار أمه بعد عودته منالبادية حتى فقدها وهما فى زيارة لقبر أبيه بالمدينة

وما كان قد بقى فى الدنيا للفتاة الايم غير هذا الصبى وذكرى أبيه الراحل فى غربتين : غربة الموت وغربة المكان

فخرجت به ضيفاتزور الفقيد الراحل فىمثواه وتحسبه مشوقا تحت طباق الارض الى رؤية الوليد الذى لم تبصره عيناه تحت شمس النهار

وكذلك تزير الوليد اليتيم أباه

فلما قضت حق الزيارة ولبثت فى جيرة اخوال عبدالله شهرا أو بعض شهر ، قفلت بوليدها راجعة الى مكة ، فماتت ودفنت فى الطريق

وكل ما وعته السيرة من مرضها انها وعكت من لفحة السموم فلم تطل بها الوعكة غير أيام

ومن اليسير ان نعلم وقع هذه الفاجعة فى نفس الصبى اليتيم ، يتجدد له مصابه فى أبيه فلا يكاد يبرح ضريحه حتى يقف على ضريح امه مهجورا فى عرض الطريق

الا ان هذه الفاجعة بما تدل عليه اهم فى دراستنا هذه مما خلفته فى نفس الصبى الصغير

مصابه فى أبيه ومصابه فى أمه ، ولم يزال صبيا صغيرا حين أطبق عليهما مصابه فى جده الذى ضمه اليه بعد فقد أبويه

لو نفس صغيرة تتابعت عليها هذه الضربات فى صباها لسحقتها واستنزفت كل ماحوته من عطف وأمل ، فلا

تعيش ـ ان عاشت بضرباتها ـ الا كما يعيش الاشباح في ظلمات الحياة

فاذا وجبت لنا وقفة عند هذه الضربات التى تلقاها الصبى فأول مانقف لديه وأولاه بالوقوف الطويل انها دلالة على القوة فى مكمنها وعلى الروح العظيم الذى تجلى بعد ذلك فى تاريخ بنى الانسان ، كفؤا لأعظم الاعباء وأفدح الخطوب

وتلى ذلك وقفتنا أمام العطف الذى أفادته تلك النفس القوية من ضربات تسحق مادونها وتنزف منها كل عطف وأمل

وقد خرج الصبى من تلك الضربات القاصمة بالعاطفة الزاخرة التى تشمل العالمين : عالم الحياة وما بعد الحياة ، مذ كان أحب الناس اليه فى عالم آخر لاتبديه له هذه الحياة ، وجاءت بعثته الى الناس كافة باسم الله الرحمن الرحيم

ولعله أول فتح أطل عليه من فتوح عالم الغيب فاستمد منه بعد ذلك قوته التى دان لها هذا العالم المشهود

دنياه بعد ذلك أوسع من دنيا الناس وأعم من دنيا الاحياء ، وحاجز الموت عنده برزخ تتصل به الدنيا والآخرة ويعيش فيه الحى والميت ، ولا ينتقل فيه الخلق فى دنياهم ليهلكوا آخر الدهر بل ليعيشوا آخر الدهر خالدين

وقليل فى جنب هذا فائدة العطف الذى عهدناه من صباه الى ختام حياته يحيط به كل انسان وكل حى وكل شىء . وانما يترجم عنه عطفه على حاضنته وعلى مرضعته

وعلى كل باق من بقايا امه وابيه ، ولم يزل يترجم عنه عطفه الذى لم يحرمه احد قط من صاحب أو صديق

▭

ولا ندع الكلام على الاسرة النبوية وفى الخاطر سؤال توحى الينا ان نسأله وان نجيب عنه ما استطيع الجواب

لقد مات عبد الله وآمنة ولما يجاوزا الخامسة والعشرين . ولا يكون الموت فى هذه السن الا علامة على الضعف والهزال ، ان لم يكن من مرض يستنفد الاجل فى عنفوان الشباب

فهل كان محمد عليه السلام سليل أبوين ضعيفين هزيلين ؟

ان لم تكن غرابة الالتقاء بين الابوين على هذا الضعف كافية لدفع هذا الظن فلا حاجة الى دافع له غير حياة الوليد بما استوفته من قوة الروح وقوة الجثمان

وقد سأل اناس من كتاب الغرب هذا السؤال وخيل اليهم انهم وجدوا جوابه فى قصة الصرع المزعوم قبل الفطام وفيما كان يعروه من برحاء الوحى التى وصفها الاقربون منه ، وأيسرها انه كان عليه السلام يرعد ويضطرب ويتقاطر منه فى اليوم الشاتى عرق كحب الجمان

وعجيب أن يصاب الانسان بصرع لايعروه غير مرة واحدة فى سن الرضاع ، ثم لايعاوده مرة أخرى الى قرابة الاربعين

واعجب منه أن يصاب به بعد الاربعين فى حال واحدة حين يتلقى الوحى ، ثم لا يصاب به مرة فى غير تلك الحال

ولكنه ليس بالعجيب ان تجيش بنية اللحم والدم من اعماقها فى غاشية كغاشية الوحى كائنا ما كان قوام البدن الذى تغشاه

ولا نعلم أن أحدا من الانبياء وصف لنا كما وصف محمد عليه السلام فى كل لمحة من لمحاته وفى كل حركة من حركاته ، وفى يقظته ورقاده ، وفى حديثه وصمته ، وفى جلوسه ومسيره ، وفى ركوبه وارتجاله ، فلم تكن له صفة قط فى كل أولئك غير صفة البنية السوية والخلق القويم

كان باتفاق جميع واصفيه فوق المربوع بعيد مابين المنكبين ، غزير الشعر تلمس جمته شحمة اذنيه ، شثن الكفين والقدمين ضخم الكراديس — أى ملتقى العظام، ولم يكن بالمطهم ولا بالمكلثم ، ادعج العينين أهدب الاشفار ، اذا مشى تقلع كأنما ينحط من صبب ، ذريع الخطوة سائل الاطراف (١)

والنطق ابين عن حالات الصرع من سائر الصفات ، وما وصف منطق النبى بشىء ينم على اضطراب فى عصب أو فى عضل أو ينبىء عن عرض من الاعراض غير سليم أو قويم : كان ضليع الفم ، يتكلم بكلام بين فصل مفسر ، اذا أشار اشار بكفه كلها واذا تعجب قلبها ، واذا تحدث اتصل بها — أى صحب كلامه بما يوافقه من حركتها — واذا غضب أعرض وأشاح واذا فرح غض طرفه ، جل ضحكه التبسم ، ليس بصخاب ولا يرتفع له صوت فى غير دعاء

---

(١) المطهم المنتفخ الوجه والمكلثم المدور ، والاهدب طويل أهداب العين مع انعطاف

وهذه صـــفات كلامه من أكثر من عشرين مصـــدرا جمعها ابو عيسى الترمذى صاحب الشمائل المحمدية ، ولم يأت بين ثناياها مساغ اشتباه فى عرض من اعراض خلل الصرع والاضطراب ، بل هى كلها توكيد للمنطق السليم والخلق القويم

الله أعلم حيث يجعل رسالته

وقد جعلت رسالة محمد حيث ينبغى أن تكون ــ خلقا وخلقا ــ من ميراث الزمن وميراث الاجداد والآباء ، فكل خلق وصف به فهو الصالح لاداء رســـالته والنهوض بأمانته . ان تكن ضريبة من ضرائب العظمة الـكبرى ــ ولابد لها من ضريبة ــ فتلك هى النقص فى نسله ليستوفى التمام من أمر هذه الذرية الباقية الى يومنا ، وبعد يومنا ، جامعة واعية لـكل تابع من تابعيـــه ، وكل مولود له فى عالم الضمير من بنيه وغير بنيه

وانه لعلى خلق عظيم

وانه لعلى خلق قويم

نتيجة النتائج

ونتيجة النتائج من مقدماتها جميعا أن حوادث الدنيا وحوادث الجزيرة وحوادث الاسرة ، قد مهدت سبلا شتى للرسالة المحمدية ، ولكنها مهدتها لتاتي الرسالة بعدها فتثور عليها وتنكث غزلها ، وتعيدها على العالم الانساني في نسج جديد

يتيم في غير ذلة

عزيز في غير قسوة

يرث الكعبة ولكنه يهدم أربابها ، ويرث الاريحية من يقين بني هاشم ولكنه يغير مجراها ، ويرث العصبية في أقواها وامنعها ولكنه يقودها الى عصبية واحدة تضم اليها العرب والعجم ، وتؤمن برب واحد هو رب العالمين

وجائز أن يكون صاحب الرسالة قد عرف في صباه كل دين من أديان الجزيرة العربية ، ولكنه ليس بالجائز أن

تعلمه كيف ينكر أخطاءها ويقوم التواءها ويترقى بها من أوشاب الشرك الى صفاء التوحيد

مهدت له الدنيا طريقا ولكنه هداها الى غير تلك الطريق

فهما تمهيدان يتلاقيان ويفترقان : تمهيـد من قوانين الـكون وتمهيد من العناية الازلية ، وحيث ينهض رجل واحد بما يأباه قومه ويأباه معهم أقوام زمانه ، فليست هى بارادة انسان ولـكنها ارادة الله ، وما هى بقدرة أحد أو آحاد ولكنها قدرة الخالق فيما خلق ، يوليها من يشـاء حيث شاء

فهرس

صفحة

مقدمة المقدمات ٧
الطوالع والنبوءات ١١
الاحوال العالمية قبل الدعوة المحمدية ٤١
الجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية ٥١
النبوة المحمدية ٩٥
سيد الانبياء ١١٣
دين الانسانية ١٣٧
الكعبة ١٤٩
أسرة النبى ١٦١
والدا النبى عبد الله وآمنة ١٨٧
نتيجة النتائج ٢٠٤

الكتاب القادم :

يوميات نائب فى الأرياف

بقلم

توفيق الحكيم

يصدر فى ٥ يونيه

كتاب « الهلال »

سلسلة كتب شهرية بثمن زهيد

هى خطوة ثقافية كبيرة قامت بها دار الهلال لتيسير القراءة المفيدة للجميع .. ففى الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لاحد كبار الكتاب فى الشرق والغرب ، فى اخراج انيق وطباعة متقنة ، ثمن الكتاب الواحد ٨٠ مليما ـ ما عدا كتاب زينب ١٠٠ مليم ـ بخلاف مصاريف البريد المسجل ، وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

عبقرية محمد
تأليف عباس محمود العقاد

غاندى : القديس الثائر
تأليف لويس فيشر

ماجلان قاهر البحار
تأليف ستيفان زفايج

زعيم الثورة سعد زغلول
تأليف عباس محمود العقاد

هرون الرشيد
تأليف المرحوم الدكتور احمد امين

الزعيم احمد عرابى
تأليف عبد الرحمن الرافعى

ابو الشهداء
تأليف عباس محمود العقاد

بطلة كربلاء (نفدت نسخه)
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

جنكيز خان سفاح الشعوب
تأليف ف . يان

اشعب امير الطفيليين
تأليف توفيق الحكيم

قلب النسر
تأليف اوكتاف اوبرى

نفرتيتى ربة الجمال والتاج
تأليف صوفى عبد الله

السيد عمر مكرم
تأليف محمد فريد أبو حديد

حديث رمضان
تأليف الامام محمد مصطفى المراغى

عبقرية خالد
تأليف عباس محمود العقاد

الذئب الاغبر مصطفى كمال
تأليف الكابتن هـ.س. ارمسترونج

كليوباترة فى خان الخليلى
تأليف محمود تيمور

الاسلام دين الفطرة
تأليف الشيخ عبد العزيزجاويش

لا تخف
تأليف ادوارد سبنسر كولز

مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية
تأليف عبد الرحمن الرافعى

القائد الاعظم محمد على جناح
تأليف عباس محمود العقاد

زينب
تأليف الدكتور محمد حسين هيكل

مذكرات عرابى (جزء أول)
تأليف الزعيم أحمد عرابى

مذكرات عرابى (جزء ثان)
تأليف الزعيم أحمد عرابى

عبقرية عمر
تأليف عباس محمود العقاد

آمنة بنت وهب
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

فاطمة الزهراء والفاطميون
تأليف عباس محمود العقاد

عصا الحكيم فى الدنيا والآخرة
تأليف توفيق الحكيم

أبو نواس
تأليف عبد الرحمن صدقى

البؤساء
تأليف فيكتور هيجو

علمتنى الحياة
لنخبة من الشرق والغرب

فى الطريق
تأليف ابراهيم عبد القادر المازنى

مدرسة المغفلين
تأليف توفيق الحكيم

لا تقتل نفسك
تأليف بيترشتاينكرون

عصاميون من الشرق والغرب
لنخبة من كبار الكتاب

ذو النورين عثمان بن عفان
تأليف عباس محمود العقاد

محمد الثائر الاعظم
تأليف فتحى رضوان

الارواح المتمردة ـ الاجنحة المتكسرة

الموسيقى
تأليف جبران خليل جبران

عش مائة عام
تأليف جايلورد هاوزر

الحرية الحمراء
تأليف حبيب جاماتى

نساء النبى
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

أهل الكهف
تأليف توفيق الحكيم

ثائرون
تأليف محمود تيمور

الله
تأليف عباس محمود العقاد

زهرة العمر
تأليف توفيق الحكيم

عش شابا طول حياتك
تأليف فيكتور بوجومولتز

هذا مذهبى
بأقلام نخبة من الشرق والغرب

علم الفراسة الحديث
تأليف جرجى زيدان

غادة النيل
تأليف اميل لودفيج

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من قسم الاشتراكات بدار الهلال شارع محمد بك عز العرب « المبتديان » بالقاهرة وشركة الصحافة المصرية بشارع النبى دانيال بالاسكندرية ، ومن شركة الصحافة المصرية بميدان المحطة بطنطا ، ومن السيد محمود حلمى صاحب المكتبة العصرية شارع المتنبى ببغداد ، ومن شركة فرج الله للمطبوعات بشارع بيكو طريق المالكى ببيروت ، وهى المكتب العام لتوزيع المطبوعات لصاحبه السيد على نظام ببناية العابد بدمشق ، ومن جميع المكتبات الشهيرة وأكشاك الصحف ، ما عدا الكتب التى نفدت نسخها كما ترى فى هذا الكشف